الباب الأول

مُشكِلَةُ العَلمَانِيَة

obeikandl.com

obeikandl.com

العلمانية .. والاسلام .. فى الفكر

هل المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام ومبادئه : فى الحكم والسياسة ، وفى نظرته إلى الإنسان ، وفى تحديد منهج السلوك له . . تنشأ له مشكلة تتعين العلمانية حلا لها ؟ أم أن العلمانية كحل تتطلب أن نستورد أولا من الأجنبى عنا مشكلته ؟ فإن صعب استيرادها فلنتصورها على الأقل ، وتكون العلمانية عندئذ حلا لوهم ، وليست لحقيقة قائمة فعلا ؟

الإنسان فى ظل مبادىء الإسلام لا يرتفع إلى مستوى الألوهية والقداسة فى التقدير ، كما لا ينزل إلى مستوى الحيوان فى السلوك والمعاملة .

ولا يعصم عن الخطأ فى الحكم والرأى والسلوك . بل كما يصيب : يخطىء .

والوظيفة العامة التى يتقلدها الإنسان ــ أياً كانت منزلتها ــ لا تغير من خصائص طبيعته البشرية .

وحكومة الإسلام فى تطبيق مبادئه ليست إلهية بل هى بشرية تخضع للنقد ، وتقبل الشورى والمطالبة بها .

ورأى الإنسان (أو اجتهاده) لا يلتزم به إلا الإنسان صاحب الرأى نفسه .

وإمام المسلمين أو رئيس دولتهم هو ــ بحكم نظام الإسلام فى الخلافة ــ من الخيرة بينهم : إيماناً بالله ، ومعرفة بمبادىء الإسلام ، وأكثرهم تجنباً للظلم والاعتداء ، وإحقاقاً للحق ، وإقراراً للعدل .

والعلمانية إذن .. ليس لها مع الإسلام مكان فى وجود الإنسان . فإما أن يوجد الإسلام .. ولا علمانية ، أو توجد العلمانية .. ولا إسلام . والعلمانية فى تصور بعض المسلمين المعاصرين وفى محاولتهم التوفيق بينها وبين الإسلام فى

مجتمع إسلامى .. تعود إلى قصور فى تصور الإسلام ، ثم إلى رغبة فى محاكاة حلول فى تفكير الغرب ، لمشاكل كانت وليدة البيئة الغربية ، ونتيجة الصراع فيها حول السلطة والتفرد بالقوة فى كل جوانبها فى المجتمع الأوروبى .

إذ العلمانية تنسب على غير قياس إلى العالم ، أو العالمية Secularism هى نظام من المبادىء والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الدينى والعبادة الدينية .. هى اعتقاد بأن الدين والشؤون الأكليريكية (اللاهوتية والكنسية) والرهبنة لا ينبغى أن تدخل فى أعمال الدولة ، وبالأخص فى التعليم العام . والتحول إلى العلمانية هو التحول من الملكية الدينية إلى الملكية المدنية أو من الاستعمال الدينى إلى الاستعمال المدنى .. هذا التحول هو التخلص من سلطة الرهبنة والعهد الرهبنى .. هو التحول إلى الانتماء المدنى .

والعلمانى Secular . هو ما يتعلق بالحياة الدنيوية المؤقتة وليست له قداسة ، مقابل الشئون الكنسية . ومنه الموسيقى الدنيوية .. مقابل الموسيقى الدينية أو الكنسية ، والمدرسة الدنيـــوية أو المدنية .. مقابل المدرسة الأكليريكية .

وهنا إذن : ثنائية فى المجتمع الأوروبى .. هنا دولة — وكنيسة .. هنا مدنى — ودينى .. هنا حياة دنيوية غير مقدسة — وحياة أخرى كنسية لها قداستها .. هنا دولة لها سلطة وتريد أن تتوسع فى سلطتها — وهنا كنيسة لها سلطة كذلك وتريد أن تحافظ على الأقل على سلطتها فى مواجهة سلطة الدولة . وهنا حياة مدنية أو دنيوية تخضع للتغير والتطور — وهنا حياة دينية كنسية فى منأى عن التغير والتطور .

هذا مشكل لا يبرز إشكاله إلا وقت أن يتخاصم الطرفان ، ويمتنع أى منهما عن أن يخضع للطرف الآخر ، بسبب من الأسباب .

كانت الكنيسة تكاد تكون صاحبة السلطة المسيطرة طوال القرون الوسطى فى أوروبا .. حتى ابتدأ الإنسان الأوروبى يكشف مجالا آخر يرى فيه استقلاله عن الكنيسة ، وهو مجال البحث الطبيعى .

ثم أخذ يشعر بوجود نفسه المستقل يوم أعلن قانون الجاذبية .

وأخذ يعتز بنفسه يوم استخدم قوة البخار فى الصناعة .

ثم كلما اكتشف قوة أخرى ، ابتعد عن الكنيسة وسيطرتها ، بل واتهم الكنيسة ونال من دين الكنيسة : فزادت اتهاماته بعد أن عرف قوة الكهرباء ، وفجر الذرة ، وبحث الفضاء وهو إذ يوجه اتهاماته للكنيسة وينال من دينها لم يكن ذلك بناء على أدلة علمية يقينية توجب إبعاد المسيحية. وإنما فى الأغلب يستهدف من كثرة الاتهام والنيل .. المحافظة على حريته فى حركة البحث وفى السلوك فى ظل دولة قوية مستقلة عن الكنيسة ، وعن رأى رجال الأكليروس فيها .

والذين كانوا يوجهون الاتهامات إلى الكنيسة وينالون من المسيحية فى عصر من العصور بعد القرون الوسطى — وبالأخص من القرن السابع عشر ، إلى القرن التاسع عشر — لم يسلموا من المعارضة . . ومن المعارضة العلمية القوية : فالقوانين مثلا التى قامت عليها الماركسية فى القرن التاسع عشر — وكانت نظرتها إلى الكنيسة والدين أشد مراحل العلمانية عنفاً ضد الكنيسة والدين — هذه القوانين لم تسلم لها ، أى للماركسية ، من الوجهة العلمية :

١ — فنشأة الأنواع وتطورها — كما تذكر عند : داروين Darwin (١) ، وهيكل Haeckel (٢) . . بقيت حتى الآن لغزاً ، كما كانت ، ولم تصبح قانوناً علمياً ، كما ادعت الماركسية وأسست عليها تفكيرها .

٢ — والأصل الميكانيكى الذاتى ، الذى يؤكد أن الحياة كلها ، من : عقلية ، ونفسية ، وسلوكية صادرة عن : « مادة » عضوية فى الإنسان . . هذا الأصل لا يعتبر من الحقائق العلمية فى نظر كثير من الباحثين .

---

(١) عاش بين ١٨٠٩ — ١٨٨٢ (٢) عاش بين ١٨٣٤ — ١٩١٩

٣ـ والمادية كمذهب تحت أى عنوان . . انتهى أمرها اليوم ، على الأقل فى ميدان البحث العلمى ، وبالأخص : جعل الاقتصاد أساس الحياة الإنسانية فى جميع اتجاهاتها .. نقضه ماكس فيبر Max Weber (١) فى كتابه : « البحوث الدينية الاجتماعية » (ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٠) بالدين عند الهنود ، والصينيين واليهود .. وبالمجتمع الاقتصادى فى القرون الوسطى وصلته بالتفكير الكنسى .. وبالرأسمالية وتأثرها بتعاليم كالفن : Kalvin (٢) .. وبالحقائق الرياضية والمنطقية وعدم صلتها بأى أساس مادى .

ومشكل تنازع السلطة بين الدولة والكنيسة ، أو بين الدنيوى غير المقدس ، والكنسى المقدس تصور بعض المفكرين حله : فى أنه يجب أن يكون ـ الحل النظرى على الأقل ـ فى توزيع السلطة وتقسيمها بين الطرفين : يكون للدولة مجال ، وللكنيسة مجال . . تكون للدولة الشئون السياسية ، والاقتصادية ، والتعليمية ، والتشريعية بما لا يمس الكنيسة ، وتكون للكنيسة شئون الأسرة فى مراسيم الزواج ، وطقوس الوفاة ، ونظام الرهبنة (الأكليروس)وهذا التقسيم ، أو الفصل بين السلطتين يأخذ اسم العلمانية . وقد مر فى التفكير الأوروبى بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة العلمانية المعتدلة . وهى مرحلة القرنين السابع عشر والثامن عشر .

والمرحلة الثانية : مرحلة العلمانية المتطرفة . وهى مرحلة القرن التاسع عشر . وقد بلغت قمتها فى التطرف فى التفكير المادى التاريخى .

فالمرحلة المعتدلة إن اعتبر فيها الدين أمراً شخصياً لا شأن للدولة فيه ، فإن على الدولة مع ذلك أن تحمى الكنيسة .. وبالأخص فى جباية ضرائبها . وإن طالب التفكير العلمانى فى هذه المرحلة بتأكيد الفصل بين الدولة والكنيسة ، فإنه لا يسلب المسيحية كدين من كل قيمة لها ، وإن كان ينكر

---

(١) عاش بين : ١٨١٤ ـ ١٩٢١ (٢) عاش بين : ١٥٠٩ ـ ١٥٦٤

فيها بعض تعاليمها ، ويطالب بإخضاع تعاليم المسيحية إلى العقل ، وإلى مبادىء الطبيعة ، مما نشأ عنه ، ذلك المذهب المعروف باسم : Deism ؛ وهو مذهب يعترف بوجود الله كأصل للعالم ، ولكنه ينكر : الإعجاز ، والوحى ، وتدخل الله فى العالم ؛

ومن أتباع هذا المذهب :

١ـ فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) فى فرنسا .

٢ـ شفتسبرى Shaftesbury (١٦٧١ ـ ١٧١٣) فى إنجلترا ؛

٣ـ ليسنج Lessing (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) فى ألمانيا .

ومن فلاسفة هذه المرحلة المعتدلة للعلمانية فى التفكير الأوروبى : الفيلسوف الإنجليزى لوك Loke (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) .

فهو يرى : أن الدولة الحديثة التى رفعت عن شئونها كل وصاية للكنيسة. تنظر إلى كل اعتقاد دينى على أنه رأى شخصى وإلى كل رفقة فى الدين على أنها ترابط حر ، يجب أن يتحمل وأن يدافع عنه ، طالما لا يهدد نظام الدولة بالإقلاق أو التخريب ؛

وقد شارك ليبنيز Leibniz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) لوك ـ كى يكون الوحى المسيحى مطابقاً للعمل ـ فى وجوب حذف بعض التعاليم المسيحية : كعقيدة التثليث ، وعقيدة : الطبيعة الإلهية الإنسانية للمسيح ، على أن يصبح الوحى الإلهى للإنسان عامة هو : القوانين والمبادىء ، وليس ما وراء الطبيعة ، كما وقع لموسى . وبالرغم من أن الدين يصبح بعد هذا التعديل فى الوحى موضوعياً .. فإنه يظل أمراً شخصياً يلتزم به الشخص وحده ، دون صلة بالدولة .

ومن فلاسفة هذه المرحلة المعتدلة فى العلمانية كذلك : الفيلسوف الإنجليزى الآخر هوبز Hobbes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) .

فهو يرى : أن الدولة « عقد » وأن عليها أن تسوق الإنسان بالإكراه

إلى الانضمام إلى هذا العقد . ودفع الإنسان بالإكراه إلى الانضمام إلى عقد الدولة ناشيء عن نظرته إلى الإنسان على أنه « أنانى » من طبيعته . أى على العكس من نظرة روسو Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) إلى هذه الطبيعة . فطبيعة الإنسان فى نظر روسو .. هى طبيعة خيرة ، وأن الإنسان اجتماعى بإحساسه . ولذا لا يدفع لأن يشارك فى الدولة كعقد اجتماعى ، لصالح الكل ، بل ينتظر منه أن يقوم بذلك من نفسه .

ويتحدث هوبز عن « سيادة » الدولة .. فيجعل الدولة هى المصدر الوحيد للقانون ، والأخلاق ، وكذلك الدين . ويقول فى شأن ذلك : «لهذا أعلن أن سلطة الدولة العليا لها الحق فى أن تفصل هى فى بعض التعاليم : هل هذه التعاليم تحتمل بالنسبة لطاعة المدنيين للدولة أم لا ؟ فإذا كانت لا تحتمل فيجب تحريم انتشارها » .

وفى نظره : ممارسة الدولة لسياستها هو لعب بقوة الأنانية المتجمعة . فالأفراد أنانيون بطبائعهم ومن مجموع أنانيتهم تتكون قوة الدولة . والدول فى علاقات بعضها مع بعض يعـــود فيها وضع الطبيعة المسمى الآن بالسيادة . ومن أجل سيادة الدول فى نظر هوبز .. تستمر الحرب . والقوة والمنعة كلتاهما تحددان وحدهما طبيعة الجماعة .

ولتوضيح العلاقات بين الدول ، وأنها علاقات قائمة على استخلاص المنفعة واستخدام القوة يظهر التمثيل بالحيوان كشعار للدولة فى فلسفة الفلاسفة :

فعند هوبز ، الذئب هو شعار الدولة .

وعند مكيافيللى ، شعارها هو : الأسد والثعلب .

وعند اشبنجلر : شعارها هو : النسر .

وعند ليسنج : شعارها هو : القرد الجارح .

ومن حرص هوبز على سيادة الدولة : يعارض كل اتجاه يعارضها ، وبالأخص يتجه بمعارضته إلى الكنيسة . والأمر عنده فى مخاصمة الكنيسة ليس هو أمر التفتيش عن الحقيقة ، أو القانون ، أو الدين .. بقدر ما هو محافظة على قوة الدولة وسيادتها .

وللدولة – أو للأكثرية – أن تفعل فى نظره ما تهوى وما تريد. والإنسان جماعة له أن يستحسن ، أو يستقبح ما يشاء. وبذلك يعود الإنسان من جديد مرة أخرى – بعد السوفسطائية فى الفكر الإغريقى القديم – إلى أنه هو مقياس الأشياء ومعيار القيم. وعلى هذا النحو تنظر الشيوعية إلى الفرد: فهى ترى مغزى وجوده فى وجود الإنسان العام : فى وجود « الوحدة الجماهيرية » .. فى وجود « الدولة » .. فى وجود « الحزب » وعن هذه النظرة تصل الشيوعية إلى : الدولة المطلقة . ونظام الدولة المطلقة يجعل الدولة: المبدأ .. والمصدر الأخير لكل جانب من جوانب الحياة .

واندفاع هوبز إلى التقدير الأعمى للإنسان العام يعود إلى خضوعه إلى اتجاه المادية ، ورؤيته الحقيقة كلها – وليس بعضها فحسب – فى الماديات . ثم يعود أيضاً إلى إيمانه: بقانون الحركة الطبيعية بين الضغط والدفع ، والسبب والمسبب .. تلك الحركة التى تنشأ عن أسباب طبيعية خالصة فى تعليل الأحداث . إذ عن طريق تأثر هوبز بالأمرين معاً .. لم ير إلا السيادة المطلقة للدولة فى تجميع الأفراد الأنانيين بطبيعتهم ، على العقد . وكذلك يصدر رأيه عن هذا التأثر بوجوب معارضة الدولة للكنيسة فى سبيل احتفاظها بالقوة المطلقة ، وكذلك يصدر رأيه أيضاً باستخدام الحرب مع دولة أخرى .

ولم يسلم هوبز من المعارضة القوية لرأيه فى الدولة وفى معارضة سلطة الكنيسة .

فقد قام فى وجهه فى إنجلترا ما يسمى : بمدرسة كمبردج . ومن أقوى المعارضين له فى هذه المدرسة Ralf Cudworth (١٦١٧ – ١٦٨٨) : فقد عارض مذهبه الإلحادى ، ورفض: أن تكون الأخلاقيات يمكن أن تنشأ عن الفهم الطبيعى . كما يدعى هوبز . وأكد : أن هذه الأخلاقيات تتأصل فى المثل العليا فى العقل الإلهى . والعقل الإنسانى يسهم فيها عن طريق : أنه مخلوق لله . ومن أنصار هذه المدرسة :

١ — صموئيل باركر Samuel Parker

٢ — هنرى مور Henri More

٣ — جون سميث Johni Smith

وأما الفيلسوف الإنجليزى الآخر: هيوم Hume (١): فهو مع كونه ملحداً ينكر الله ، كما ينكر خلود الروح .. إلا أنه كرجل من رجال التقاليد فى إنجلترا .. يبقى على اعتبار الدين ، كإيمان فقط . فالدين فى نظره ليس علماً وإنما هو إحساس فقط .. إحساس بالإيمان بموجود قوى فوق الإنسان .. هو إحساس ناشىء عن تغير موجات الحياة ، وظلام القدر ، والترقب المخيف ، والقلق من المستقبل ، وبالأخص بعد الموت . والوثنية هى الصورة الأولى لهذا الإيمان فى نظره .

وفى فرنسا ظهر الفيلسوف روسو Jean Jacques Rousseau(٢) : وهو يتفق مع هوبز فى إبعاد الدين عن الدولة وعن التربية على وجه أخص. ولكنه يختلف معه فى سبب المطالبة بإبعاده . فهو فى فلسفته على الضد من فلسفة هوبز .. هو إنسانى وليس بمادى. ويستهدف فى فلسفته تقدم الإنسانية وحريتها ، وسعادتها . ولكن بوسائل أخرى غير تلك التى نادى بها فولتير . فروسو كان من أصحاب القلب والإحساس ، بينما فولتير كان من أصحاب العقل والتفكير .

روسو يرى : أن الإنسانية يجب أن تعود إلى الطبيعة الأولية .. إلى فضيلة المواطن .. إلى سعادة الأسرة والمنزل. ولكن يقف فى طريق سعادة الإنسانية — فى نظره — التناقض بين الطبقات والطبقة الحاكمة ، وكل المنظمات التى تحتفظ بالقوة المسيطرة وتسعى إلى الاحتفاظ بها من : مدنية ، وكنسية .

---

(١) عاش بين : ١٧١١ — ١٧٧٦ (٢) عاش بين ١٧١٢ — ١٧٧٨

وبالرجوع إلى الطبيعة الأولى وحدها – فى نظره – توجد بين الناس : المساواة ، والحرية ، ولذا : فالناس إخوة . وليس بالرجوع إلى الثقافة والمدنية ولا إلى المجتمع الذى يجعل ذلك . وبسبب الحرية والمساواة .. يعطى روسو : الكلمة إلى الديموقراطية الراديكالية وسيادة الشعب ، بدلا من تعاليم : الدولة المطلقة عند هوبز ، وبدلا من الملكية الدستورية للنموذج البريطانى عند مونتسكيو Montesquieu (١) . وفى نظره ليست هناك حاجة إلى نيابة برلمانية ، طالما تكون القوة الحقيقية للشعب . ويكفى من وقت لآخر : أن يقترع الشعب على بيان يعلن عليه .. وإلا لا تكون القوة فى الواقع لهؤلاء الناس الطيبين ، ولا للشخصيات الحية فى أصلها التى تصنع الدولة . وإنما تكون القوة عندئذ لتلك المؤسسات الثقافية الجامدة ، ولتلك الأحزاب ، والطبقات والمنظمات التى تنمو وتتعاظم فوق رؤوس الشعب وتسلبه حريته ، معتمدة على تجاربها .

فالدولة هى الشعب نفسه ولا ينبغى أن ينظر إلى الشعب إلا على أنه اتحاد اجتماعى حر (عقد اجتماعى) صادر عن إرادة المواطنين ، الذين هم كذلك ليسوا شيئاً آخر سوى : أنهم مواطنون ، متساوون ، أحرار ، طيبون .

وفى التربية – للمحافظة على الوضع الطبيعى الأصيل للإنسان – يجب أن يترك التلميذ حراً ، بدون إكراه له من الخارج .. يجب أن يتبع ما له من استعدادات وطاقات ذاتية : بحيث ينشأ صادقاً فى حسه ، وطبيعياً مع خصائصه . وللمحافظة على أن يكون طبيعياً فى نموه يجب إبعاد غير الطبيعى من القوى الثقافية ، والعادة ، والقانون ، وكذلك تعليم المسيحية الخاص « الخطيئة الموروثة » . فكل شىء من صنع الخالق عندما يخرج .. هو حسن ، وكل شىء يقع تحت أيدى الإنسان .. ينحط ويتغير » . هذه هى الجملة الأولى فى كتابه التربوى . « إميل » . وفى هذا الكتاب يركز روسو على الطبيعة ويجعلها وحدها هى العامل الفصل . كما يجعل الدين فى التربية أمراً ضد الطبيعة .

---

(١) عاش بين : ١٦٨٩ – ١٧٥٥

فالإيمان فى أكثر الناس هو أمر جغرافى. ويتعلق بالإنسان وحده: هل هو ولد فى مكة ، أو فى روما .

وروسو على وجه التأكيد ضد تلقين الأطفال الحقائق الميتافيزيقية، التى لا يمكن أن تدرك بالحس . ولذا — من وجهة نظره — ينبغى ألا يتبع الطفل حزباً دينياً . ولكن يمكن من الاختيار بنفسه ، على أساس من عقله الخالص.

وفى الوقت الذى يتجه روسو فيه ضد الإلحاد يتجه أيضاً ضد الأدلة الميتافيزيقية على وجود الله ، التى يحتضنها علم اللاهوت الكنسى . فالله — فى نظره — ليس موضوعاً للعلم ولا للعقل ، بل هو موضوع للإحساس والقلب. والإيمان بالفضيلة والخلود هما : الدين الصادق .

ليسنج (١) Lesseing ، والدين :

والدين فى نظر ليسنج ليس شيئاً نهائياً . ولكنه يكون مرحلة يقوم عليها طريق الحياة للإنسانية . والأديان كلها تقع فى مجال التطور — ككل ما يقع فى التطور — ويجب أن تخطو إلى ما هو أفضل وأحسن . وفى الأديان الكبيرة يستهدف الله توجيه الإنسانية إلى ما هو حق ، وما هو صح . وليست هناك حقيقة أبدية لا تنقض . وإنما هناك سعى نحو الحقيقة .

وفى هذه المرحلة الأولى للعلمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر — هذه المرحلة التى تعتبر معتدلة نوعاً ما عن المرحلة التالية — تكمن دوافع الفصل بين الدولة والكنيسة ، أو بين الدين والدولة فى الأسباب الآتية :

أولا : فى الحرص على سيادة الدولة سيادة مطلقة ، فى مواجهة سلطة الكنيسة ووصايتها السابقة فى القرون الوسطى على الإنسان ، كما هو واضح عند : هوبز .

---

(١) عاش بين : ١٧٢٩ — ١٧٨١

وثانياً : فى اتهام المسيحية ببعد بعض تعاليمها عن العقل — كعقيدة التثليث ، وعقيدة الطبيعة الإلهية الإنسانية للمسيح — كما يرى فى فلسفة : لوك ، وليبنز وفى محاولتهما — مع آخرين — لتصفية المسيحية على أساس من منطق العقل ، كما يدعى ، وتسمية ما يخضع للعقل باسم : دين العقل .

وثالثاً : فى النظر إلى الدين فى التربية على أنه ضد « الطبيعة » كما فى نظرة روسو إليه ، بناء على تعاليم المسيحية : « بالخطيئة الموروثة » .

ورابعاً : فى اعتبار الدين أمراً متطوراً ، وليس بنهائى ، كما يراه ليسنج ، وبالتالى : حقائقه حقائق متغيرة وقابلة للنقض .

وإذا كان هوبز قد كشف واضحاً فى فلسفته عن عامل الفصل بين الدولة والدين ، وهو عامل الحرص على سيادة الدولة .. وهو عامل يتصل بالتنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة ، أكثر منه عاملا يبرز عزل المسيحية عن الحياة الإنسانية العامة ، فإن العوامل الثلاثة الأخرى تتجه إلى نقد الدين . وهى وإن اتجهت إلى نقد الدين والنيل من تعاليمه ولكنها تتجه فى واقع الأمر إلى تفسيرات فى المسيحية أصبحت تقليداً وعقيدة لبعض كنائسها . ولكن جوهر المسيحية لا يخرج عن كونه دعوة للروحية الإنسانية فى مواجهة المادية التى طغت فى آخر عهود الموسوية .

المرحلة الثانية للعلمانية فى القرن التاسع عشر :

وهى مرحلة العهد المادى ، أو ما يسمى « بالثورة العلمانية » . . مرحلة الجناح اليسارى من مدرسة هيجل فى القرن التاسع عشر .

وقد قيم مؤرخ الفلسفة : K'Lowith فى كتابه Von Hegel Bis Nietzsche — « من هيجل — إلى نيتشه » سنة ١٩٥٠ ، — أصحاب العهد المادى والثورة العلمانية : بأنهم قد انحرفوا فى التوجيه ، ونقلوا معارفهم الأكاديمية إلى المعارف الصحفية ، تحت ضغط الظروف الاجتماعية . وأصبحت وظيفتهم هى وظيفة الكاتب : يقع تحت التبعية المستمرة للناشرين ، ولمن يعطون المال ،

والجمهور ، والرقابة .وكتابتهم هى : بيانات وندوات ، وبرامج ،وادعاءات ومظهرهم العلمى أصبح تبليغاً حماسياً للناس ، كما أصبحت لهجتهم تنطوى على الإثارة . ولكن كتابتهم لاتترك إلا ذوقاً قليل الطعم . لأنهم يدعون ادعاءات عريضة لا حدود لها ، مع فقر وسائلهم.والعالم بعد سنة ١٨٣٠ أصبح قبيحاً وفاسداً . ولو قيس العقل الجديد فى عهد الثورة العلمانية بمقياس تاريخ العقل عند هيجل .. يعد نمطاً من تحويل الفكر .. إلى همجية وبربرية . إذ أصبح مضمونة الآن : عجرفة .. وميولا فاسدة .

فيرباخ Feuerbach(١) :

ويعتبر « فيرباخ » أهم المؤسسين لفكر الثورة العلمانية فى القرن التاسع عشر إذ يمكن للإنسان : أن يدرس عنده مرحلة الانتقال من دين أرضى طبيعى صاف بعيد عن السماء . إلى المادية المتطرفة . فقدبدا واضحاً ، أنه يشلح الإله المسيحى من تاجه ، ويطيح بالثنائية بين الدين الغيبي والعالم المشاهد ، وكذلك بين الكنيسة والدولة . وذلك فى رسالته التى كتبها عن هيجل .

وفى نقده لفلسفة هيجل فى سنة ١٨٣٩ ، فى تلك الرسالة التى كتبها : تحدث عن عدم الجدوى من فكرة « المطلق » — وهى الله — وذكر أن المطلق عند هيجل ليس إلا العقل المفارق للاهوت . ذلك العقل الذى يشبه فى فلسفة (هيجل) ، الخيال الطائف .

وفى رسالته :« لإصلاح الفلسفة، والمبادىء الأساسية لفلسفة المستقبل» سار قدماً فى الطريق .. نحو الإيمان بالمحسوس وحده ، وبالمادية الهوجاء . وبالأخص فيما كتبه فى هذه الرسالة تحت عنوان « طبيعة المسيحية » سنة ١٨٤١ .

والمذهب المثالى عند هيجل — فى نظر فيرباخ — ليس إلا غطاء للاهوت « ومن لا يتنازل عن فلسفة هيجل ، لا يتنازل عن اللاهوت » فرأى هيجل — فى نظر فيرباخ — بأن الواقع والطبيعى نشأ عن « الفكرة » هو التعبير

---

(١) عاش بين : ١٨٠٤ — ١٨٧٢

العقلى فى تعاليم اللاهوت : بأن الطبيعة نشأت عن الله . ويقول — متحدياً ذلك — : إن الدين اللانهائى ، وكذلك الفلسفة ، ليس فى الواقع إلا تحديداً حسياً نهائياً ، ولكن فيما وراء الضوء . فبداية الفلسفة لا يمكن أن تكون الله ، أو الوجود بدون موجود ، ولكن بدايتها فقط : النهائى ، والمحدد ، والواقع ويجب أن تكون المادية أو أن يكون مذهب الحس فى موضع الدين الغيبى — أى الموحى به من عند الله — وفيما وراء الطبيعة ، والواقعى ، والحقيقى ليس : الله ، ولا : الوجود ، ولا : المفهوم والمعنى ، ولكن الموجود : هو المحس.

والإنسان هو الموجود الإلهى ، وليس الله . والدين الجديد هو : السياسة بالطبع ، وليس : المسيحية . والسياسة يجب أن تكون ديننا . ولكن لا يتحقق ذلك إلا إذا كان هناك شىء أعلى فى نظرنا يحول السياسة إلى دين . وهذا الشىء الأعلى هو : الإنسان . ولكن ليس الإنسان الفرد . لأن الإنسان الفرد يظل دائماً إنساناً أرضياً مفتقراً . ولذا يجب أن تكون : « جماعة العمل» هى المسبود ، وفى مكان العبادة .

والله ، والدين ليس أى منهما أساس الدولة . وإنما أساسها : الإنسان وحاجته . ليس الإيمان بالله ولكن الشك فى الله يجب أن يكون العامل فى قيام الدولة . والإيمان الذى يجب أن يتوفر هو : إيمان الناس بذواتهم أنفسهم وببعضهم بعضاً . لأنه إذا بقى الله هو : السيد ، والرب . . فإن الإنسان سيظل واثقاً به ، بدلا من أن يثق بالناس . والباقى لنا هو الإنسان وحده .

ولهذا : فالدولة هى مضمون الواقع كله .. هى الطبيعة العامة أو الإنسانية هى الحامية والواقعية للإنسان . وبهذا تصبح الدولة مناقضة للدين . « وأن الإلحاد العملى هو الرباط بين الدول » . والناس يلقون بأنفسهم على السياسة فى الوقت الحاضر — هكذا يذكر فيرباخ — لأنهم يعرفون : أن المسيحية كدين تشل فاعلية الإنسان السياسية .

وتسمى هذه النظرة — من جانب أتباع فيرباخ — التى تنقل الإنسان إلى مكان الله فى العبادة ، وتقام الدولة عليها ، وتصنع التاريخ .. بالمذهب الإنسانى الإلحادى !

ماركس Marx (١) :

وفيرباخ يعتبر معبدالطريق التى سلكها كارل ماركس مع زميله: إنجلز، نحو تأسيس ما يسمى بالمادية التاريخية الاستنتاجية Dialektisch ، وتعود تلامذة ماركس بأن يلقبوه : « بأب الاشتراكية العلمية » . وماركس تأثر أولا بفلسفة هيجل ، ثم عن طريق تأثره بـ « فيرباخ » . وتحول إلى اليسار المتطرف لفلسفة هيجل . وقد درس الاشتراكية أيضاً فى فرنسا ، وتعرف هناك على « انجلز » . وعن طريقه ذهب إلى انجلترا « ودرس المشاكل الاقتصادية ، كما تأثر بالأوضاع الاجتماعية السيئة التى كانت للطبقة العاملة هناك . وفى سنة ١٨٤٨ وضع : « البيان الشيوعى » فى مدينة بروكسل ، بالاشتراك مع « انجلز » .

وتآليفه : «العائلة المقدسة» . . و«الأيديولوجية الألمانية». و«شقاء الفلسفة». و«رأس المال». وقد نعت ماركس نفسه : بأنه تلميذ لهيجل عكس عليه وضع فلسفته : فهيجل نظر إلى العالم من «أعلى». لأن « الفكرة » عنده هى « مبدأ العالم » وما عداها تابع فى الظهور لها ، أو تابع لما يسمى : بالمفهوم ، أو بالعقل العام . والطبيعة المادية هى عند — هيجل — صفحة أخرى « للفكرة» وحدها . بينما يرى ماركس : أن الحقيقة المادية وحدها هى بداية العالم ، وهى كذلك : الواقع الصافى الجازم ، وما عدا الحقيقة المادية مما له طبيعة : « الفكرة » كالعادة ، والخلقية ، والقانون ، والدين ، والثقافة .. هو تابع فى الظهور الإضافى لتلك الحقيقة — أى لتلك المادة .

و « المادية » عند ماركس تختلف عن « المادية » عند الآخرين من أصحاب اليسار من تلامذة هيجل .. حتى عن « المادية » عند فيرباخ: أستاذه ومعبد الطريق له .. المادية .. عند ماركس هى المادية العملية أو التطبيقية، التاريخية الإلحادية .

---

(١) عاش بين : ١٨١٨ - ١٨٨٣

وفى نقد ماركس للمادية عند فيرباخ يرى : أن المـــادية التى قال بها فيرباخ هى : « عوض » عن المذهب الحسى ، الذى ينظر الى العالم الطبيعى على أنه مجعول ويقبل قبولا سلبياً ، وليس على أنه انتاج للعمل الإنسانى المحسوس أى انتاج الاقتصاد ، أو على أنه يدرك : على أنه عمل للإنسان .

والنظرة المادية لماركس هى نظرة راديكالية — متطرفة — استخدم فى شرحها عدة مبادىء من فلسفة هيجل .. استخدم فيها :

أولا : مبدأ الباعث على التطور الدائم .

وثانياً : مبدأ رفع المتناقضات .

وثالثاً : مبدأ التقدم نحو جديد ، وإن لم يكن أحسن .

كما اختار للتطبيق « الثلاثى » فى فلسفة هيجل —**وهو الدعوى ، ومقابل الدعوى ، والجامع بينهما**— مجال : النظام الرأسمالى كدعوى ، والطبقة العاملة كمقابل للدعوى ، والمجتمع الشيوعى اللاطبقى كجامع بين الدعوى ومقابل الدعوى . وبسبب هذا الاختيار يعتبر كارل ماركس «ثورياً »وليس فيلسوفاً إذ الفلسفة فى نظره : وسيلة مختارة لاتجاهاته السياسية .

والمادة التى تقصدها الماركسية ليست مادة بعيدة عن النشاط الإنسانى . فالمادة التى تحدد — فى رأيه —النظرة إلى العالم ، أو إلى التاريخ ، — وكذلك ما يحدد على العموم : التفكير ، والعمل ، والسلوك للإنسان — هى مادة متصلة بنشاط الإنسان ، أو هى إنسان فى صلته بالمادة ، هى الاقتصاد .

ماركس .. والمسيحية :

ويرى ماركس : أن هدم المسيحية مقدمة ضرورية لبناء عالم يكون الإنسان فيه سيد نفسه . ولكن لا ترفض المسيحية وحدها ، بل معها يرفض كل دين كذلك . إذ الدين يسلب الإنسان وعيه بمأساته وشقائه فى الوقت الذى يمنيه فيه بعالم أفضل ويتحدث عنه بقوله : « إن الدين هو أفيون الشعب » .

ولذا — فى نظر ماركس — يجب أن يذكر الشعب دائماً : بأن الدين ليس إنتاجاً للإنسان . بل إنه تفكير الإنسان واحساسه ، ذلك الإنسان الذى لم يتكسب بعد ، أو الذى أصبح بالفعل ضائعاً .

وفى نظر ماركس : الطبقة التى تملك ، والأخرى التى تعمل كلتاهما تمثلان وضعاً شاذاً فى الإنسانية. ولكن الرأسمالية — كما يراها — تحس نفسها بخير فى عدم إنسانيتها . وهنا تنشأ مهمة الطبقة العاملة ، وهى : ألا تخدع بالدين وألا تتراخى فى الصراع ضد الرأسمالية بسببه . فهذه الطبقة العاملة يجب أن تكون على ذكر دائم بمأساتها ، كى تزيل وضعها الشاذ فى الإنسانية ، كما تزيل ذلك الوضع الشاذ الآخر للرأسمالية فى الإنسانية .

وإيمان كارل ماركس بفكرة التقدم (التقدمية) — كما كان الحال فى القرن التاسع عشر يرجع الى عاملين :

العامل الأول : ما توحى به فلسفة هيجل بأن كل تطور هو تقدم ، أى هو خطوة إلى الأمام ، وإن كان ليس بلازم أن يكون أحسن .

العامل الثانى : أن مدح التقدم والتبشير به يعتبر من عدة « الثائر » . وماركس كان ثائراً ، أكثر منه فيلسوفاً .

وتتلخص الماركسية — وهى العناية بفلسفة ماركس ، وانجلز — فى عـــدة مبادىء :

المبدأ الأول : المادية ، التاريخية ، الاستنتاجية . من الوجهة الفكرية والنظرية .

المبدأ الثانى : الإلحاد ، واستخدام المنهج العلمى فى تحقيقه .

المبدأ الثالث : صراع الطبقات ، للوصول إلى مجتمع لا طبقى .

وتتبع هذه المبادىء عدة موضوعات أخرى فى الاقتصاد ، على نحو ما تذكر فى كتاب « رأس المال » . وأهمها ما يخص فائض القيمة ، الذى هو الفرق بين ما يدفع للعامل من رجل الصناعة ، وما تباع به السلعة المصنعة فى

السوق الحرة . ويرى ماركس فى فائض القيمة : أن الرأسماليين يدفعون للعامل أجراً ، على نحو يحفظ له قدرته على العمل فقط — ويسميها ماركس بالقيمة الخادعة — بينما قيمة الربح فى إنتاج العامل فى السوق الحرة أكثر من ذلك . وفائض القيمة يخفيه الرأسمالى . وهنا يكون معنى الرأسمالية مساوياً لمعنى الاستغلال للعامل . والرأسمالى يرغب فى ذلك ، لأنه يملك وسيلة الإنتاج ، والرأسمالى من غير أن يجهد نفسه فى عمل . يصل عن طريق استغلال الشعب العامل إلى تكديس الثروة باستمرار . ولكن هذا التكديس نفسه — كما يتنبأ ماركس — سيؤدى إلى الإكراه على نزع الملكية الخاصة من المكدسين . لأن هؤلاء المكدسين هم الذين أوجدوا الطبقة العاملة ، ثم عن طريق هذا التكديس عكسوا الآية فأساءوا إلى العمل .

وإذا صارت الطبقة العاملة على وعى بوضعها اللاإنسانى فإنها ستتقدم إلى الكفاح : فتمسك بسيطرة القوة ، وتنزع الملكية الخاصة ، وتبعد التناقض القديم بين الرأسمالية والطبقة العاملة ، وتذيب هذا التناقض فيما يجمع الطرفين وهو المجتمع اللاطبقى .

وهذا هو اتجاه الماركسية الأرثوذكسية التى تعرف بالبلشفية فى الوقت الحاضر . . وهو المفهوم الذى أعطاه لينين — وستالين من بعده — للماركسية .

ولكن هناك جناحاً آخر للماركسيين فى غرب أوروبا ، وهو الجناح المعتدل أو المتئد . . هو جناح غير المقلدين من الذين يستخدمون : الاختبار والامتحان فى قبول النظريات أو فى رفضها . . هم من يعرفون بجناح الـ : Revisonistes — وقد يوصفون بالمرتدين تنديداً بهم — أمثال :

E. Bernstein, K. Kautzky, K. Vorlander.

وهذا الجناح ترك فلسفة ماركس فى التطبيق ، لأنها تقوم على ادعاءات لا دليل عليها ، ثم يعنى بتحسين الوضع الاجتماعى للعمال ، كعمال . فالحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا تنازل بصراحة عن المادية التاريخية والمنظمات العمالية الاشتراكية فى فرنسا ، وبلجيكا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ،

واسكندنافيا .. يصدرون الآن فى نظرتهم إلى تحسين الوضع العمالى عن مبادىء فلسفية واقتصادية أخرى .

وأسس التفكير الفلسفى الماركسى تمثل فى واقع الأمر نظرة القرنين : السابع عشر . والثامن عشر .. إلى العالم . وهى النظرة الميكانيكية ذات الصلة بعصر التنوير فى فرنسا ، وبالمذهب الوضعى ، وبالمادية فى البحث الطبيعى فى القرن التاسع عشر . وقد قذف الماركسيون بأنفسهم إلى ... مادية البحث الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، كما تقذف صبية الفلاحين إلى مصنع فى مدينة كبيرة . وهنا يفهم . أنه هنا كذلك : « ثورة » ، فقد اعتاد الإنسان الماركسى أن :

(ا) يرجع العقل .. إلى العاطفة .

(ب) والأخلاق .. إلى المنفعية .

واعتاد أن ينظر :

(ا) إلى الإنسان ، على أنه حيوان فى مستوى أعلى .

(ب) وإلى الشعب . على أنه كومة من الخلايا ـ أو الذرات الإنسانية ـ بحيث لا يحكمها هنا إلا ذلك القانون الطبيعى ، وهو قانون : الضغط والدفع ، أو السبب والمسبب ، ولكن النظرة التى قامت عليها مادية البحث الطبيعى ـ وهى النظرة الميكانيكية ـ أصبحت الآن خارجة عن دائرة الاعتبار . لأن هذه النظرة ترى : أن الوجود ذو جانب واحد ، بينما هو متعدد الجوانب . فالإنسان يبدو فى طبقات الحياة النباتية والحيوانية ـ دون ما عداه فيها ـ صاحب إمكانيات عديدة ولذا : فله من طبيعته : الحرية والمشيئة ، والاختيار ، ومن أجل ذلك يمكن أن يقال إن حتمية السببية ـ والسببية هى أصل النظرة الميكانيكية ـ للطبقة العضوية : هى ظاهرة إحصائية فقط ، أى ليست ظاهرة صحيحة بالنسبة لطبيعة الإنسان .

كما نقدت هذه النظرة الميكانيكية للبحث الطبيعى فى القرن التاسع عشر والتى تأثر بها ماركس فى مذهبه المادى التاريخى .. نقد أيضاً أساس ماتميزت به : « ماديته » وهى المادية العملية . . نقد ذلك الادعاء الذى يرى : أن الاقتصاد هو أصل الوجود الفكرى ، والنفسى ، والاجتماعى ، والمادى : فقد وضح ماكس فيبر Max Weber(١) — فيماسبق أن أشرنا — فى كتابه « البحوث الدينية الاجتماعية » (ثلاثة أجزاء ١٩٢٠) :

(ا) أن الدين عند الهنود . والصينيين ، واليهود ، لم يقم على أساس اقتصادى ، كما يحاول ماركس : أن يشرح كل شىء فى الوجود — حتى الدين والأخلاق ، والفكر . . من الاقتصاد ، ولكن الفكرة الدينية وحدها فى هذه الأديان الثلاثة هى التى حددت البناء الاجتماعى لشعوب هذه الأديان .

(ب) وأن التفكير الكنسى كان له تأثير على المجتمع ، وعلى الاقتصاد فى القرون الوسطى .

(جـ) وأن الرأسمالية المعاصرة قامت على الأيديولوجية الخاصة Calvin كالفن(١) ، وتحت تأثير أصحاب : النزعة الخاصة ، فى المسيحية من البروتستنت ، فى إنجلترا منذ القرن السادس عشر Puritaners وليست الرأسمالية هى التى خلقت هذه الأيديولوجية .

ويستمر « ماكس فيبر » فى نقده لفكرة نشأة الوجود عن الاقتصاد فى ماركسية كارل ماركس فيتساءل :

(د)هل يمكن أن تكون الحقائق الرياضية ، والمنطقية تابعة لأسس مادية؟

(هـ) أليست هذه الحقائق هى ، فى كل وقت ، وفى كل الظروف ؟

---

(١) عاش بين : ١٨٦٤ — ١٩٢١

(٢) عاش بين : ١٥٠٩ — ١٥٦٤

لينين فى تطبيق الماركسية (١) :

إن ماركس كان ذا صلة بالثوار الروس منذ وقت سابق ، وفلسفته منذ سنة ١٨٧٠ كانت تناقش وتدرس فى روسيا ، والمؤسس ، فى الواقع للماركسية الروسية هو Plechanow (٢) عندما كان مهاجرا بجنيف . ففى سنة ١٨٨٠ أسس أول مجموعة ماركسية فيها تسمى نفسها : « رابطة تحرير العمل » وتبع تأسيس هذه المجموعة قيام مجموعات أخرى على غرارها فى روسيا ، وانضم بعضها إلى بعض تحت شعار : « اتحاد الكفاح من أجل تحرير الطبقة العاملة » .

وفى سنة ١٨٩٨ عقد أول مؤتمر للماركسيين فى مدينة Minsk ، وعقد المؤتمر الثانى فى بروكسل ــ ولندن سنة ١٩٠٣

ولينين هو الذى حول الماركسية إلى عقيدة للحزب . وأصبحت الماركسية تسمى بالبلشفية فى عالم السياسة ، بينما تسمى بالمادية الاستنتاجية فى عالم الفلسفة . والبلشفية إذن هى « الدين الجديد » بديلا عن المسيحية .

وفى نظر لينين يجب أن تخدم الفلسفة « الواقع » . والواقع ــ عنده ــ هو : « الحزب » . وفى مقال له تحت عنوان : « الاشتراكية والدين » كتب : « إن الدين هو أفيون الشعب وأن الدين نوع ردىء من خمرة العقل التى تحجب ذاكرة الأرقاء لرأس المال : عن أن يعوا وجه إنسانيتهم ، ومطالبهم فى وجود إنسانى ، على منتصف طريق الإنسانية » .

ومع هذا : فالرقيق الذى يكون على وعى برقه ، ويقوم للكفاح من أجل تحرير نفسه ... يكون قد وصل إلى منتصف الطريق نحو الخلاص والتحرر النهائى . والعامل الحديث الذى يكون على وعى بطبقيته ، والذى تخرج فى المصنع الكبير وعلى بصيرة بطريق حياة المدنية ... يبعد عن نفسه بكل احتقار : الامتيازات الدينية ، تاركاً للسماء ... أصحاب الدرجات العالية

---

(١) عاش بين : ١٨٧٠ ــ ١٩٢٤ (٢) عاش بين : ١٨٥٦ ــ ١٩١٨

من القساوسة ، ومن المدنيين الصالحين . من أجل استخلاص حياة أفضل على الأرض هنا .

وإذ يوافق لينين على أنه يجب أن يكون الدين أمراً شخصياً – كما هو متعود أن يقال فى دائرة الماركسيين – فإنه يوافق فقط بالنسبة للدولة ووضعها . أما بالنسبة للحزب فيجب أن يمارس أعضاؤه الإلحاد . إذ الحزب عدو لدود للدين . أما الدولة فيجب أن تكون محايدة ؛ على معنى : أنها لا تهتم بالدين وأن لا ترتبط به ، وأن يكون عديم المغزى لديها بالنسبة للمواطن ، فلا تسأله عن مذهبه الدينى . وحياد الدولة بالنسبة للدين هو انفصال كامل بين الكنيسة والدولة .

***

وفى مرحلة العلمانية المتطرفة ، أو ما يسمى بمرحلة اليسار المتطرف فى مدرسة هيجل ، نرى :

أولا : أن « علمانية » فيرباخ – وهى التى تتمثل فى مذهبه الإنسانى الإلحادى – هى : إلغاء للدين ، أى دين ، وليست فصلا بينه وبين الدولة بمفهوم العلمانية فى مرحلتها الأولى ، وإحلال « للإنسان العام » – جماعة العمل – فى العبادة محل الله .

وثانياً : أن «علمانية» ماركس – وهى التى تتمثل فى المادية ، التاريخية ، الإلحادية – هى : هدم الدين كمقدمة ضرورية لقيام عالم يكون فيه الإنسان سيد نفسه . وتنتهى سيادة الإنسان الى سيادة المجتمع والدولة . ووضعهما بالنسبة للأفراد هو وضع المعبود الخالق من الأفراد المخلوقين .

وثالثاً : أن «علمانية» لينين ينتهى أمرها إلى إلغاء المسيحية كدين ، ووضع « البلشفية » – وهى الماركسية اللينينية – كدين جديد ، بدلا منها . وهذا الدين الجديد يجب أن يكون فى خدمة « الواقع » الذى هو « الحزب » . والحزب يأخذ الآن فى هذا الدين الجديد مكان « العبادة » عوضاً عن الله فى المسيحية ، ومكان القداسة عوضاً عن الكنيسة .

***

وهنا نجد ، بعد استعراض مجمل لأهم خصائص الفكر الفلسفى العلمانى فى أوروبا :

أولا : أن دافع « العلمانية » فى القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، كان هو : التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة . ولذا كان الفصل بين السلطتين هو : الحل الفلسفى ، أو الرسمى لهذا التنازع .

وثانياً : أن الدافع عليها فى القرن التاسع عشر ، أو فيما يسمى : بين اليسار الثورى أو المتطرف فى مدرسة هيجل ، هو الاستئثار بالسلطة . ولذا : كانت العلمانية غير مساوية لمفهوم الفصل بين الكنيسة والدولة . بل كانت إلغاء للثنائية ، بهدم الدين كمقدمة ضرورية للوصول الى « السلطة المنفردة » التى هى : سلطة « جماعة العمل » أو « المجتمع » أو « الدولة » أو « الحزب » ، حسب تحديد بعض هؤلاء اليساريين المتطرفين .

وثالثاً : أن البحوث الطبيعية ، والتقدم العلمى بالتدرج منذ نهاية القرون الوسطى هى التى جرأت أرباب هذا الفكر العلمانى على الخروج على وصاية الكنيسة ، وعلى الاستقلال فى النشاط الإنسانى وحركة المجتمع عن أى رأى يصدر منها .

ورابعاً : أن الفكر الفلسفى العلمانى - سواء فى مرحلته الأولى ، أو الثانية - لم يسلم فى أوروبا من مواجهة فكر فلسفى آخر معارض . فقد قامت مدرسة كمبردج بمعارضة هوبز - أشد المفكرين العلمانيين صلابة ضد الكنيسة فى مرحلة العلمانية الأولى - كما قام كثيرون فى المرحلة الثانية منها بمعارضة المادية عند فيرباخ ، والمادية التاريخية عند ماركس ، وبنقض الأسس الفلسفية التى تبناها الاتجاه المادى المعاصر سواء : أكانت أسساً تنتمى الى دائرة البحث الطبيعى أو الى دائرة الاقتصاد . وأبرز المعارضين لهذا الاتجاه المادى كتلة المنشقين لليساريين من أتباع : برنشتين الذين لقبوا من أعدائهم اليساريين .. **بالمرتدين** ثم ما قام به فى القرن العشرين من معارضة الفيلسوف الاجتماعى الألمانى : « ماكس فيبر » لأساس : « الاقتصاد » ، بصفة خاصة على أنه العامل

المحرك فى الوجود كله . وبلغ من تأثير ما نالته المعارضة من هذا الاتجاه المادى : أن أصبح يوصف هذا الاتجاه فى الفكر الأوروبى نفسه : «بالثورية» — دون أن يوصف « بالفلسفى » — الأمر الذى يدل على أنه يعبر عن عاطفة وحماس ، أكثر منه تعبيراً عن فكر وتأمل .

وخامساً : إن الموطن الذى ولد فيه الفكر العلمانى فى مرحلتيه ، وهو : إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا : لم يأخذ بالاتجاه العلمانى ، فى التطبيق فى الحياة العملية . فالتاج البريطانى لم يزل حامياً للبروتستنت ، وفرنسا لم تزل حامية للكثلكة فى صورة عملية . والدولة فى إنجلترا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا — رغم إعلان أنها علمانية — تساعد المدارس الدينية من ضرائبها الخاصة التى تجبيها من المواطنين ، مع علمها باستقلال هذه المدارس فى برامجها التعليمية ، وبعدها عما تجريه الدولة من تفتيش على النفقات التى تنفقها .

والجانب الآخر الذى يتبنى البلشفية كدين وكسياسة ، بدل المسيحية ، فى أوروبا الشرقية لم يأخذ منذ الستينات بسياسة « التعايش السلمى فقط » مع الرأسمالية الغربية .. وإنما يأخذ كذلك بسياسة « حسن العلاقات » مع دولة الفاتيكان ، وإن كان فى الداخل ينفذ سياسة العداء للدين فى قسوة .

***

الإسلام — وموقفه من العلمانية :

أما موقف الإسلام فهو ضد العلمانية بأى من المفهومين ، لأنه :

أولا : يوم أن شدد فى دعوته على « التوحيد » وعلى مقاومة « الشرك » فى العبادة .. قصد إلى رفع الازدواج والثنائية فى تحديد مصير الإنسان ، وفى توجيهه ، كما قصد إلى المساواة — فيما عدا الله — بين الناس . فليس بينهم معصوم سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغ ما أمر بتبليغه إلى الناس . والجميع بعد ذلك سواء فى جواز الخطأ والصواب : فى تفكيرهم ، وسلوكهم ، وتصرفاتهم .

ومعنى ذلك : أنه ليست هناك حكومة إلهية من مجموعة من الناس أياً كان إخلاصهم فى العبادة لله ، وأياً كانت منزلتهم منه ، إذا أخذت بتعاليم القرآن واتبعت مبادئه فى سياستها . فهى حكومة إنسانية تخضع للخطأ والصواب. ولذا — فعند النزاع فى الأمر مع القائمين على شأن الحكومة الإسلامية — فالقرآن يطلب العودة بالنزاع بين الطرفين : طرف الحاكمين وطرف المحكومين . . إلى كتاب الله وسنة رسوله التى تعبر عما فى كتاب الله، توضيحاً أو تطبيقاً . يقول الله تعالى « **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » (١) .

فهنا يأمر القرآن المؤمنين جميعاً من أولى الأمر وغيرهم بأربعة مبادىء :

(ا) بأداء الأمانات إلى أهلها . وفى مقدمة الأمانات أداء صاحب الولاية العامة أمانة ولايته ، لمن يولى عليهم ، وبالأخص العمل طبقاً لما جاء فى كتاب الله .

(ب) بمباشرة العدل فى الحكم والقضاء بين الأطراف المعنية فى الخصومة.

(جـ) بالطاعة لما لله من قوانين ومبادىء فى صورة أوامر ، أو نواه أو وصايا ، وطبقاً لما جاء فى كتابه ، وفى سنة رسوله : قولا ، وعملا .

(د) بالاحتكام إلى ما لله فى القرآن وسنة الرسول من مبادىء ، وأحكام وتطبيق عملى ، عند التنازع بينهم وبين أولى الأمر فيهم .

فطلب القرآن رجوع المؤمنين جميعاً إلى الله فى الكتاب والسنة ، فيما بين ولى أمر ، ومن عداه فى الجماعة . . ويوضح فى غير إبهام أن أصحاب

---

(١) النساء : ٥٨ ، ٥٩

الحكم والولاية العامة فى الجماعة المؤمنة لايرتفع مستواهم إلى «العصمة» عن الخطأ . وإنما يجوز عليهم الخطأ كما يجوز عليهم الصواب فى الشئون الدنيوية . وعصمة الرسول عن الخطأ هى عصمة فى تبليغ الوحى وليست فى الشئون الدنيوية . وقد عاتب القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاباً قاسياً على موافقته على سياسة الحرب مع الأعداء الماديين الملحدين .. أى على موافقته على رأى أبى بكر رضى الله عنه ، إذ يوجه إليه عليه السلام القول فيما تسجله هاتان الآياتان : « **ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن** (أى يثبت ويقوى) **فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا** (وهو مال الفداء) **والله يريد الآخرة** (أى ثوابها لكم) ، **والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق** (أى لولا قضاء من الله سبق بالعفو) **لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** »(١) . فقد كان الرأى فى معاملة أسرى « بدر » يدور بين إطلاق سراحهم بفدية مالية ـ والمؤمنون يومئذ كانوا فى حاجة ماسة إلى المال ـ أو قتلهم تنقيصاً لعدد الأعداء ، وإرهاباً لهم من الإقدام على مهاجمة المؤمنين فيما بعد ومحاولة إذلالهم والتأليب عليهم . والمؤمنون يومئذ كذلك كانوا قلة ، ولقلتهم كانوا مستضعفين . وأشار أبو بكر بالرأى الأول ووافقه عليه الرسول ، بينما أشار عمر بالرأى الثانى . وعندما نزل الوحى بهذا العتاب كجزء لاينفصل من كتاب الله .. ظهر أن الصواب فى وضع المؤمنين القائم إذ ذاك .. كان فى جانب عمر . ومعنى ذلك أن أبا بكر جانبه الصواب فى رأيه . فهذا المثل من العتاب يدل على أمرين :

على أن الحاكم فى ظل العمل بالقرآن ـ ولو كان الرسول نفسه عليه السلام ـ لايسلم رأيه من مجانبة الصواب ، وبالتالى هو غير معصوم .

وعلى أن مبدأ « الاجتهاد » مبدأ أصيل ورئيسى فى الإسلام . وهو ضرورة للإنسان بحكم طبيعته التى تخطىء وتصيب ، وتتطور وتتغير . وقد

---

(١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨

مارسه المؤمنون فى وقت مبكر على عهد نزول الوحى ، الأمر الذى يدل على أن القرآن جاء للطبيعة الإنسانية ، ولوضعها الوضع الصحيح ، فلا يرتفع بها إلى مستوى الألوهية أو العصمة ، ولايريد لها أن تنزل إلى مستوى المادة التى تدفع إلى الهوى والشهوة فقط ، كذلك الإنسان الذى يبتعد عن هداية الله . فقد جاء وصف هذا الإنسان فى قول الله تعالى : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها** (أى جعلناه فى مستوى الإنسانية الفاضلة) **ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه** (هذا كناية عن إيثاره الدنو وعدم الرغبة فى الارتفاع إلى ذلك المستوى الإنسانى الفاضل) ، **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث** (أى إن تضطهده وتتبعه يضهر الإعياء والقلق) **أو تتركه يلهث** (أى وكذلك هذا شأنه لو ترك بدون اضطهاد وتتبع يظهر الإعياء والقلق) **ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** »(١) .

وإذا كانت دعوة التوحيد فى الألوهية فى الإسلام ، تستهدف المساواة ـ فيما عدا الله ـ بين الناس فى الاعتبار الإنسانى ، وفى البقاء فى المستوى الإنسانى ، وفى المشاركة فى خصائص الإنسانية من الصواب والخطأ .. فإنه ليس هناك فى نظر الإسلام : مكان فى جماعة المؤمنين ، أو فى المجتمع الإسلامى ، لنزاع حول السلطة ، على أساس أن بعض المجموعات فى المجتمع يتميز عن المجموعات الأخرى ، على أساس غير إنسانى ، فهذه مجموعة لها قداسة ، ولقولها عصمة .. وهذه مجموعة أو مجموعات أخرى ليست لها قداسة ، وليست لأقوالها عصمة : كما هو تصوير مبعث النزاع بين الكنيسة والدولة فى الفكر الأوروبى .

كذلك دعوة القرآن إلى أن الدنيا دار اختبار وابتلاء ، وأنها مرحلة أولى تسبق مرحلة الآخرة .. لاتعنى إطلاقاً « شرية » هذه الدنيا ، ولا

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

« الانصراف » عن متعها وزينتها ، ومن ثم لاتعنى أن الاشتغال بها أمر قليل الشأن فى ذاته ، وأقل شأناً من الاشتغال بدين الله . إن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ وله حظه فى الإسلام وفى الدعوة إلى دين الله ـ كان يباشر أمراً من أمور الدنيا ، وهو التجارة . حتى بعد أن ولى أمر الخلافة أراد الاستمرار فى النزول إلى الأسواق ومباشرة تجارته .. إلى أن لقيه عمر رضى الله عنه ونصحه بالإعراض عن ذلك ، طالما هو فى شغل بأمر المسلمين ، ثم جمع عمر الصحابة وسألهم أن يقرروا لأبى بكر فى بيت المال مايسد حاجته طالما يتولى الخلافة . فقرروا له مايكفيه ويكفى أسرته . فلو أن التجارة مثلا ـ كشأن من شئون الدنيا ـ شر ، أو أمر نجس فى نظر الإسلام إلى الدنيا .. لما أقبل عليها مسلم له قدم راسخة فى الإسلام كأبى بكر رضى الله عنه ، ولما اتخذ منها مصدر رزقه ومعيشة أسرته ، فضلا عن أن يرغب فى الاستمرار فى ممارستها بعد أن ولى أمر المسلمين .

واستنكار القرآن لتحريم زينة الدنيا ، وتأكيده ـ بعد هذا الاستنكار ـ حل ما فى الدنيا من طيبات الرزق وزينة فيها للإنسان ، فى قول الله تعالى : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** » (١) .. هذا من أجل الطيبات والزينة ، وذاك من الاستنكار لتحريم زينة الدنيا : يدل على المتع المادية ليست شراً ، وعلى أن المادة ليست نجسة يجب تجنبها ، أو على الأقل يجب أن ينظر إليها فى احتقار وازدراء ، كما ينظر لمن يباشر العمل فيها بنظرة أقل .

وما أعلنته الآية الثانية هنا من محرمات أخرى فى مقابلها ، وهى ارتكاب : المنكرات ، والظلم ، والانحراف ، والشرك بالله ، والاختلاق فيما يوصف به الله

---

(١) الأعراف : ٣٢ ، ٣٣

جل جلاله ـ وهى أمور معنوية ترتبط بالسلوك ، والتصرف ، والاعتقاد للإنسان ـ يؤيد : أن ماديات الحياة الدنيا ـ فى نظر الإسلام ـ هى فى وضع سائغ ومقبول يحمل على استحسانها ، والرضا بها ، والسعى إليها من الإنسان نفسه . وقد طالب القرآن نفسه : ألا يكون أداء العبادة عاملا يحمل على تجاهل الدنيا ، وعلى عدم الحركة فيها لتحصيل الرزق ، كما لايكون السعى فى الدنيا شاغلا عن أداء العبادة فيقول : « **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**»(١) . فأداء العبادة له منزلته فى الإسلام . وأداء السعى فى تحصيل متع الحياة له منزلته فى الإسلام كذلك ، لأنه إذا كانت العبادة تحمل على استقامة الأسلوب فى تحصيل متع الحياة ، فإن تحصيل هذه المتع بسعى الإنسان يعين بدوره على الاستمرار فى العبادة .

والشىء الذى يحول الإسلام دونه عند تحصيل متع الحياة هو الإسراف فى الاستمتاع بها . لأنه يترتب عليه : إما منع الآخرين من حقهم فى الحياة ، وإما الإساءة إلى الذات نفسها بكثرة ماتستمتع به ، يقول الله تعالى : « **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين** »(٢) فينهى عن المبالغة فى الاستمتاع بالأكل والشرب أى بمتع الحياة الدنيا ، ولكنه لاينهى عن تحصيلها وأصل الاستمتاع بها .

وتقدير الدنيا ـ فى نظر الإسلام ـ على أن متعها أمر مرغوب فيه لايجعل شئونها فى سياسة الدولة أمراً نجساً . وبالتالى لايكون للعلمانية بمعنى التنافس على السلطة لمجموعتين مختلفتين فى الاعتبار ، وفى شأنين غير متساويين فى التقدير ـ كما هو مفهوم العلمانية فى مرحلتها الأولى ـ مكان فى الإسلام . فشكل التنافس ، والخصومة بين المتنافسين غير قائم وغير وارد أصلا فى الإسلام . وطالما لايرد مشكل فى نظامه ، فليس لحله كذلك موضوع فيه .

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠ (٢) الأعراف : ٣١

وثانياً : يوم أن وجه الإسلام دعوته إلى أهل الكتاب بقوله : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » (١) .. فطلب إليهم الاتفاق على احتفاظ الإنسان بسيادته وكرامته ، وذلك بألا يعبد الإنسان سوى الله وحده ، فلا يعبد الطبيعة وما فيها من كائنات ، ولايعبد إنساناً : فرداً ، أو ممثلا لجماعة ، كمجتمع ، أو دولة ، أو حزب .. يوم أن ناداهم على الاتفاق على هذا المبدأ ، لم يكن راغباً فى الاستئثار وحده بالسلطة كما لم يكن مهيناً للبشرية ولا مستذلا الإنسان .

إن دعوة عدم الشرك بالله . وإن دعوة عدم تأليه الطبيعة .. وإن دعوة عدم خضوع الإنسان للإنسان : الإنسان الشخصى أو المعنوى ، فى تواضع العابد ومذلته .. هى دعوة لإبعاد الإنسان عن مصدر المذلة ، وللاحتفاظ بالمساواة فى الاعتبار البشرى ، وإذا عبد الإنسان الله وحده فإنما يتقرب بعبادته إياه إلى محاكاة قيم عليا تصور صفاته جل شأنه ؛ وهى صفات الكمال : فى العلم . والخلق ، والقدرة ، والحياة ؛ والتدبير ، والإرادة ، والغنى بالذات .. إلى آخر صفاته التى يتحدث عنها القرآن الكريم ، ومن شأن محاكاة مثل هذه القيم العليا فى ذات الإنسان العابد لله وحده .. تأكيد سموه الإنسانى واعتباره البشرى .

وبتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب — على هذا النحو — ليكونوا على قدم المساواة مع المسلمين فى المحافظة على البشرية من الإهانة والمذلة ، وفى ممارسة حق الاعتبار الإنسانى فى غير خشية ولاخوف ..لم يكن الإسلام إذن : ذا نزعة انفرادية فى تولى سلطة ، ولا ذا ميل متطرف للقضاء على معارضة المعارضين ، وبذلك يتمضى القرآن فى دعوته على نزعة الاستئثار بالسلطة لفريق من الناس دون فريق آخر ، وهى تلك النزعة التى كانت الدافع إلى العلمانية فى مرحلتها الثانية ، وهى مرحلة اليسار المتطرف .

***

---

(١) آل عمران : ٦٤

وبعد ذلك : إذا لم يكن فى الإسلام ازدواج فى السلطة ولا ثنائية فى شئون الحياة .. وإذا لم يكن الإسلام ذا نزعة استئثارية ، على نحو ماكانت هذه النزعة تحرك الفكر العلمانى الأوروبى ، فإن الإسلام من جانب آخر إذا أقام نظامه للحياة الإنسانية على مبادىء عامة ، فإن من بين هذه المبادىء : مبدأ الحركية ، وهو الاجتهاد كماكان يسميه محمد إقبال ، ومبدأ الاجتهاد ، مع مبدأ ختم الرسالة الإلهية بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام — كما كان يذكر إقبال أيضاً — يتيح للإنسان المؤمن ممارسة استقلاله فى إطار هذه المبادىء العامة التى جاء بها الإسلام : للبحث عن ملاءمة الأحداث المتجددة فى حياة الإنسان المتطورة . فليس مبدأ الاجتهاد إلا تأملا وتفكيراً فى تكييف الوقائع التى لم تقع من قبل . وليس الاجتهاد إلا إرجاع هذه الوقائع إلى مبدأ أو إلى آخر من تلك المبادىء العامة التى تحكم التشريع .

أما ختم الرسالة الإلهية ، وأما اعتقاد انتهائها ، فإنه يشعر الإنسان بمدى استقلاله ، ويحول بينه وبين أن يترقب إملاء آخر له فى وقت آخر لاحق . وهو إذ يمارس الآن هذا الاستقلال فى التفكير ، فإنه لايكون مرتبطاً إلا بتلك المبادىء الموضوعية والعامة ، وهى التى تحدد نظام الحياة للإنسان فى جوانبها العديدة : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والمالية ، والأسرية والتوجيهية .

● فسياسة الحكم فى الإسلام تقوم على : الشورى وعلى الرعاية ، وليست على السلطة والتحكم ، ففى مبدأ الشورى يقول الله تعالى : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين** »(١) .. ويقول فى صفات المؤمنين « **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما**

---

(١) آل عمران : ١٥٩

رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون »(١) وفى شأن الرعاية يروى الحديث الشريف : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » . وكما تحمل الشورى : معنى المساواة فى تبادل الرأى . . تحمل الرعاية : معنى العطف ، وتجنب التحكم بالأولى كذلك .

● **والاقتصاد فى الإسلام** لا يقف عند حد العمل فى الزراعة والتجارة وحدهما وإنما معهما الصناعة ، كما يستفاد من قول الله تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » (٢) .. كما تقوم المعاملة فى الإسلام على حرية العقد ، والبعد عن الغبن فيه ولو مترقباً كالغرر . وعلى تجنب الاحتكار ، كما هو مفصل فى فقه المعاملات : التجارية ، والزراعية .

● **وفى الجانب الاجتماعى** ،يفرض الإسلام« التكافل »كعبادةوقربى إلى الله لسد حاجة المحتاج ، والوقوف بجانب الغارم فى سبيل مصلحة عامة أو تحت ظروف غير إرادية : ولمعاونة الإنسان على استرداد حريته واعتباره البشرى ، كحق طبيعى له .. ولتعويض المدافع عنالمثل العليا للمجتمع ،كما جاء فى تحديد مصارف الزكاة .

● **وفى جانب المال** ، ينظر الإسلام إلى المال فى ملكيته على أنها : ملكية خاصة ، وفى منفعته على أنها : منفعه عامة ، تأسيساً على مبدأ استخلاف الإنسان على مال لله أصلا . والإسلام يختلف بنظرته هذه إلى المال ، عن : نظرة الرأسمالية التى ترى : أن الملكية الخاصة تستتبع المنفعة الخاصة له . وكذلك يختلف : عن نظرة الاشتراكية فى مفهوم «البلشفية» التى ترى : أن تحقيق المنفعة العامة للمال يستوجب الملكية العامة له ، أى يستوجب إلغاء الملكية الخاصة . فالآية التى تطلب إلى المؤمنين الحجر على

---

(١) الشورى : ٣٧ – ٣٩ (٢) الحديد : ٢٥

السفهاء بينهم ، وسحب أموالهم الخاصة من تحت أيديهم فى قول الله تعالى: « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** (وهى فى الواقع أموال السفهاء الخاصة وتحت أيديهم) **التى جعل الله لكم قياماً** (أى جعل للمسلمين جميعاً فى هذه الأموال الخاصة ما يقيم حياتهم ومعيشتهم) **وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً** »(١) . . هذه الآية التى تحدد هذا الإجراء فى أموال السفهاء على هذا النحو ، إنما تجعل هذا الإجراء خدمة للمصلحة العامة ، وفى الوقت نفسه ، هى دليل على أن حق من لا يملك المال فى المجتمع الإسلامى هو قائم فعلا فى منفعة المال لمن يملكه . وكذلك قول الله جل شأنه : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه** (أى فى الرزق وهو الآن بيد المالكين له) **سواء** (أى فصاحب المال ، ومن لا يملك المال من الأتباع سواء فى ارتباط منفعة كل منهما بالمال الموجود فعلا بيد مالكه والمفضل فيه عن غيره) **أفبنعمة الله يجحدون** »(٢) . أى إذا لم يؤمن هؤلاء الذين فضلوا فى المال والرزق بأن الذى يعطونه مما تحت أيديهم من الرزق لأتباعهم الذين لا يملكون شيئاً — ولا يحق لهم أن يملكوا الآن ، لأن حريتهم فى التملك مسلوبة — ليس من رزقهم هم كمفضلين فى الرزق ، وإنما هو من حق أتباعهم الذين لا يملكون فى مالهم هم .. إذ لم يؤمن هؤلاء الذين فضلوا فى المال والرزق بحق أتباعهم فى منفعة أموالهم فإنهم عندئذ يكفرون بنعمة الله . . أى يكفرون أولا بأن المال أصلا هو لله ، ويكفرون ثانياً بمنع الحق عن أن يصل إلى صاحبه . . قول الله هذا يسوى — على سبيل القطع — فى منفعة المال بين : من يملكه ، ومن لا يملكه على وجه التأكيد .

وبتبنى الإسلام لهذه النظرة فى المال يحول دون التواكل واللامبالاة فى العمل فى الملكية العامة فى النظام البلشفى ، ويحد من الأنانية والاندفاع فى فتنة المال ، وإغرائه على العبث والفساد فى الملكية الخاصة فى النظام الرأسمالى .

---

(١) النساء : ٥.　　(٢) النحل : ٧١

● **وفى الأسرة** يحرص الإسلام على التضامن بين أعضائها .

عن طريق الشورى ، والرعاية المتبادلة بينهم كمجموعة من المؤمنين لعموم قول الله تعالى : «**وأمرهم شورى بينهم** »(١). ولعموم ماجاء فى الحديث «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

وبالتزام القادر من أعضاء الأسرة بنفقة الضعيف فيها لصغر فى السن ، أو لشيخوخة فيه ، أو لعجز ، أو لحائل يحول دون العمل والسعى فى سبيل الرزق .

وبإسناد **أمر التوجيه** وتنفيذ ما استقر عليه الأمر إلى الرجل كزوج ، أو أب : « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** »(٢) .

فقوامة الرجل : فى إرادته فى التوجيه والتنفيذ معاً ، وفى قدرته وطاقته على السعى فى سبيل الرزق والعيش ، وهى إرادة وطاقة من طبيعته الخاصة ، التى لم يخلق لها ثديان ، ولا تتعرض طول حياتها للحمل ، والولادة .

والإسلام كدين يفخر بالحفاظ على وحدة الأسرة ؛ لا لأنه يميل إلى النظام القبلى أو هو قائم عليه — كما قد يدعى بعض الأتباع للفكر اليهودى الاجتماعى — ولكن لأن وحدة الأسرة هى القوة الأولى فى المجتمع الإنسانى فى تماسكه وفى بقائه . وفى الوقت الذى تعيب فيه بعض النظم الاجتماعية العلمانية على الدين — كدين — العناية بأمر الوحدة فى الأسرة فى الدين — هى وحدة طبيعية — تسعى هذه النظم إلى خلق « وحدة » عوضاً عنها من « خلية جماهيرية لا تعدو الصلة بين أعضائها أن تكون « الدفع » إلى ما يسمى « بالتلاحم » . وهو تلاحم بدنى يبقى ما بقيت القوة فى الدفع نحوه . ولكنه سرعان ما يتبدد إذا ضعف الدافع والممسك به ، لأن الرباط عن طريق « الفكر المادى » يبقى فى حدود الأنانيات ، ويستحيل عليه أن يصهرها فى وحدة جماعية نفسية .

---

(١) الشورى ٣٨ (٢) النساء : ٣٤

● **وفى جانب التوجيه** : لا يرى الإسلام الإكراه ، ولاالذى يتنافر مع طبيعة الإنسان : من عوامل التوجيه له ، لا يلزمه بأمر ما . وإنما يضع أمامه الدعوة إلى مبادئه ، وله مطلق الحرية .. والمشيئة فى الإيمان أو عدم الإيمان بها : « **لا إكراه فى الدين**»(١)..«**ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** »(٢) .. فإن آمن الإنسان الحر فهو يلتزم من ذاته بما آمن به فى التوجيه ، والسلوك ، والمواقف ، فلا يلزمه تتبع البوليس ، ولا إرهاب الأجهزة السرية الأخرى ، ولاسلطة القانون ولذا : فالدولة فى الإسلام دولة إنسانية أخلاقية ، وليست دولة بوليسية .

العلمانية فى التطبيق :

ولكن فى التطبيق للعلمانية نلاحظ فى أوروبا :

أن البلاد الأوروبية التى أخذت بفكرة العلمانية فى مرحلتها الأولى : لم تزل ترعى المسيحية كدين . وذلك بالإسهام — من ضرائب الدولة نفسها — فى مساعدة التعليم الدينى فى مدارس الجمعيات الدينية . والدولة لا تحول إطلاقاً دون أن ينتشر التعليم الدينى فى المدارس الخاصة ، وإن كانت لا تعد كثيراً بالمساعدات المادية خشية من احتكاك السلطات الدينية المتعددة ، مع الدولة ، إن بدا أن الدولة تؤثر مثلا — بقليل أو بكثير — بعض الكنائس دون بعض ، على نحو ما عليه الوضع فى الولايات المتحدة الأمريكية . فالدولة الاتحادية تعترف بثلاث سلطات دينية : سلطة الكنيسة الإنجيلية ، وسلطة الكنيسة الكاثوليكية ، وسلطة الحاخامية اليهودية .

ولم تزل تدخل نفسها ضد ما يظن أنه يمس شئون الكنيسة من قريب أو بعيد ، فى سنة ١٩٥٨ كتبت أنا ثلاث مقالات فى مجلة الأزهر عن المستشرقين والمبشرين ، اعتبرت بعض دوائر الفاتيكان أنها تنطوى على بعض الإحراج لشئون التبشير الكاثوليكى على وجه الخصوص ، فكان أول احتجاج وصل إلى وزارة الخارجية المصرية هو احتجاج سفارة الولايات المتحدة الأمريكية

---

(١) البقرة : ٢٥٦ (٢) يونس : ٩٩

تلاه احتجاجات أخرى عديدة من السفارات الغربية التى تمثل فى بلادها أكثرية بروتستنتية أو كاثوليكية على السواء .

وكذلك لم تزل ، الدولة العلمانية الغربية ترعى المسيحية كدين، والكنيسة كسلطة دينية ، بالحرص على جباية الضرائب الخاصة بالكنيسة عن طريق أجهزتها الإدارية ، وعلى حماية أملاكها ، وتمكينها من مباشرة رسالتها .

وهدف الدولة العلمانية فى فصلها عن السلطة الدينية هو ، إذن : اتقاء الاصطدام معها .. وليس: محاولة تخريب قيمها الدينية ، ولا محاولة الاعتراض على ما تراه السلطة الدينية من واجبات .. وطقوس وشعائر .

.. وحتى رجال الدولة أنفسهم فى ممارستهم السياسة العامة للمجتمع .. يخضعون فى ظروف معينة لملاءمة أنفسهم مع تقاليد الكنيسة . وعلى سبيل المثال : دوق أوف وندسور ، وأنتونى إيدن ، فى إنجلترا ، كلاهما اضطر إلى ترك الوظيفة العامة أو إلى عدم السعى إليها ، لأن سلوك أى منهما فى حياته الزوجية لا يتفق مع ما تراه الكنيسة من تقاليد فى الزواج . والجنرال ديجول فى فرنسا : أقال وزير التربية الاشتراكى فى وزارته الأولى بعد أن عاد للحكم فى المرة الثانية ، بسبب عدم موافقة الوزير على مساعدة المدارس الدينية فى فرنسا ، من مدارس الجزويت ، والفرير ، بمبلغ ستين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية فى ميزانية سنة ١٩٦٢ ، من غير مقابل : حق التفتيش عليها من قبل وزارة التربية. وجون كنيدى فى انتخاب الرياسة فى الولايات المتحدة لم يفز على ريتشارد نيكسون فى سنة ١٩٦٠ إلا بنسبة ضئيلة نظراً لأنه ينتمى إلى الأقلية الكاثوليكية ، وخرج فى ترشيحه عن التقليد المتبع هناك .

وحياد الدولة الذى بشرت به العلمانية فى البلاد الغربية، وكذلك المساواة فى الحقوق والاعتبار فى ظل هذا الحياد، تنقضه التفرقة العنصرية فى مجتمعاتها كالمجتمع الأمريكى فى الولايات المتحدة مع الزنوج ، والمجتمع الإنجليزى فى

إنجلترا مع المستوطنين والوافدين من دول : «الكومنويلث» . فتشريع عديد من الولايات فى أمريكا، لايسوى بين البيض والزنوج ، ويتعارض مع حياد الدولة الفيدرالية ، الذى هو إحدى نتائج العلمانية ، كما يدعى . وتشريع البرلمان الإنجليزى الخاص بترحيل بعض القادمين من بلاد — الكومنويلث — وإعادتهم إلى بلادهم ، وبوضع قيود خاصة فى سبيل الإقامة فى انجلترا لمن يفد من هذه البلاد ، لا يتفق مع علمانية الدولة وفصلها عن الكنيسة والدين ، إذ أخص من وضعت القيود فى سبيلهم ، هم أصحاب الرعية الباكستانية ، والسبب — كما ذكرته بعض الصحف البريطانية — هو الفارق الملموس بين نظام الأسرة وسلوك أفرادها فى الإسلام، وذلك النظام الآخر الذى هو للأسرة المسيحية ، وذكرت هذه الصحف على سبيل المثال : الزواج بأكثر من واحدة ، وصيام رمضان ، والرغبة فى كثرة الأولاد .

وقد تجاوز أمر « حياد »الدولة — كنتيجة للعلمانية — فى بلاد إسكندنافيا الكنيسة كسلطة : واعتقاد الدين وممارسة طقوسه كأمر شخصى ، إلى السلوك الشخصى للأفراد . فالدولة فى أى من هذه البلاد تقف الآن موقف الحياد فى العلاقات الجنسية . وعن هذا الموقف : شاع زواج «المجموعة» . وابتدأ حل زواج الأخ بأخته . وأصبح من حق التلميذ والتلميذة أن يعرف فى مراحل الدراسة منذ الثامنة : صور المعاشرة الجنسية ، والحمل ، وتطور الجنين حتى الولادة ، من أفلام ورسوم تعرض عليهم ، كما أصبح من حق الشبان والشابات زيارة معارض جنسية تقام فى أماكن عامة يطلعون فيها على الصور المتنوعة للجنسين ، وعلى كتب الجنس ، وأفلام الحب ، (المكشوفة ، كما يسمونها) . وزواج التجربة — وهو المعاشرة الجنسية بين الفتى والفتاة قبل الزواج ، وقد لا يصل الأمر بعد ذلك إلى الزواج — تقليد مسلم به الآن فى البلاد العلمانية ، سواء فى الشرق أم فى الغرب . وقلما يعترض عليه أبو الفتاة وأمها ، وزنا الزوجة لم يعد سبباً كافياً لطلاقها من الزوج إن رفع الأمر إلى القاضى . وذلك فى الدانيمارك باعتبار أنه أمر شخصى كذلك .

ودولة الفاتيكان — فى الطرف الآخر كممثلة للسلطة الدينية — لم تزل تقوم من جانبها بدور كبير فى سياسة البلاد التى فيها أغلبية كاثوليكية ، عن طريق الأحزاب السياسية التى تسمى : بالأحزاب الديمقراطية المسيحية ، وكذلك فى السياسة الدولية العالمية . فالأحزاب الديمقراطية المسيحية هى أجهزة للعمل على رسم الخطة لتنفيذ اتجاه الفاتيكان فى الدرجة الأولى . وعن طريقها حالت الكنيسة حتى الآن دون أن تتطرف العلمانية إلى النوع اليسارى الآخر الذى يقيم « البلشفية » ديناً له ، بدلا من المسيحية .

***

ويلاحظ أن إلغاء المسيحية فى الشرق الأوروبى ، وتعويضها بالبلشفة تحقيقاً للعلمانية بمفهوم : الاستئثار والتفرد بالسلطة فى الدولة ، لم يحقق الهدف الذى استهدفته الماركسية اللينينية حتى الآن ، وهو تحويل البلشفية إلى : « دين الدولة » ليرتبط به المواطنون من أى مجتمع اشتراكى بلشفى دون أى رباط آخر من : النزعة إلى القومية ، أو الميل إلى الدين السائد قبل التحول الاشتراكى ، فالقوميات — وكذلك الاتجاهات الدينية السابقة — ما زالت تلعب دورها فى تعويق سير « العالمية » التى تشيد بها الثورات الماركسية . وإعادة تقسيم تشيكوسلوفاكيا إلى ولايات فيدرالية ، بعد أغسطس سنة ١٩٦٨ وكذلك مشروع الدستور الجديد فى يوغوسلافيا : بتقسيم البلاد من جديد إلى ولايات اتحادية ، يصور على الأقل : أن النزعة القومية ظلت قائمة وقوية ، وأن مظهر « العالمية » التى قصدت إليها العلمانية بمفهوم إلغاء المسيحية .. هو مظهر يفرضه سلطان القوة فى الدولة وحده ، وليس تعبيراً عن التحول إلى الماركسية ؛ هو دستور يتلى ، وليس واقعاً يتحسس .

وفى الدول الإسلامية : يلاحظ : ن تركيا هى الدولة الإسلامية فى الشرق التى أعلنت العلمانية الغربية كأساس لسياستها الجديدة ، منذ تولى مصطفى تاتورك السلطة فيها بعد الحرب العالمية الأولى . والسياسيون فى الغرب على

الخصوص – ومعهم المستشرقون فى بحوثهم وكتاباتهم – يشيدون بتقدم صناعى علمى فيها ، ويعودون بأسباب هذا التقدم إلى دخول تركيا مجال الغرب بدون إسلام . ففصلها بين الإسلام – كدين – والدولة : هو العامل فى نظرهم الذى قربها من الدول المتطورة .

إن تركيا فى قبولها للعلمانية كانت مجبرة على القبول فى تسوية الصلح الذى دار وراء الكواليس مع الحلفاء، بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى. وقصد الحلفاء من أن تعلن تركيا : العلمانية ، وأن تفصل الإسلام عن الدولة، وهى مركز الخلافة الإسلامية – أمرين :

– إلغاء الخلافة الإسلامية ، كأداة لتجميع المسلمين : من عرب ، وعجم على السواء فى آسيا وإفريقيا . إذ سيترتب على إلغاء الخلافة : إمكان تمزيق المسلمين إلى عرب ينطقون بالعربية ، وغير عرب ينطقون بلغاتهم الوطنية . وعندئذ يمكن التبشير بالقومية العربية كذلك لتجويف الهوة بين المسلمين . ثم لكى لا تكون للقومية العربية فاعلية بعد عزل العرب عن غير العرب من المسلمين ، ينصح الحلفاء بقيام « جامعة دول عربية » لتؤكد سيادة كل دولة عربية فى مواجهة دولة عربية أخرى . وبذلك يضعف الترابط على أساس اللغة العربية والتى اعتبرت وحدها – دون الإسلام – حجر الزاوية فى مفهوم القومية العربية . وشأن العرب الآن بعد قيام الجامعة العربية يساوى : شأن غير العرب المسلمين فى تفرقهم على أساس من لغاتهم الوطنية العديدة .

وإبعاد المسلمين غير العرب عن العرب بالتبشير بالقومية العربية – وبالقوميات الأخرى – بعد إلغاء الخلافة الإسلامية ، ثم بإضعاف فاعلية القومية العربية بين العرب من جديد بقيام جامعة دول عربية تؤكد استقلال كل دولة .. هذا .. وذاك : كان مقدمة ضرورية لعزل فلسطين عن قوة المسلمين مجتمعين ، وعن قوة العرب وحدهم مجتمعين كذلك ، كان تمهيداً لقيام دولة إسرائيل .

والذى قصده الحلفاء المنتصرون فى الحرب العالمية الأولى أيضاً وهم أصحاب العلمانية الغربية — من إعلان تركيا للعلمانية . . هو عزلها عن التراث الإسلامى ، وتكوين أجيالها القادمة فى بعد عن الصلة بالإسلام وعن العرب معاً . وبذلك تصبح تركيا المسلمة قريبة إلى الغرب فى ميوله واتجاهه ، على نحو ما أبعد الإسلام من أسبانيا ، ومن البلقان ، وجزر البحر الأبيض المتوسط — وعلى نحو ما يبعد الآن عن باكستان — ، ولكى يتم التحول عن الإسلام كانت كتابة اللغة التركية بحروف لاتينية بدلا من الحروف العربية .

والتقدم الصناعى والعلمى فى تركيا العلمانية لم يكن بسبب الفصل بين الدين والدولة .. أى لم يكن بسبب إبعاد الإسلام عن شئون الدولة ، وما تجر إليه مبادئه — كما يقال ويدعى — من : التخلف . وإنما كان مكافاة لها من الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى على السواء ، على إبعادها للإسلام . . ، وإنما كان أولا وأخيراً بسبب المساعدات الأجنبية التى قدمت لتركيا من جانب الاتحاد السوفييتى فى الشرق ، والولايات المتحدة الأمريكية على الخصوص من الغرب وهى مساعدات اقتصادية ، وفنية ، وعلمية لتتحول إلى نموذج بين البلاد الإسلامية .

فالاتحاد السوفييتى له مصلحة داخلية وخارجية فى كون تركيا ، بلداً علمانياً . فمصلحته الداخلية فى إخضاع البلاد الإسلامية الآسيوية الملحقة به — وفى بلاد القوقاز على الخصوص — للأيديولوجية الجديدة وهى أيديولوجية البلشفية أو أيديولوجية إلغاء الدين ، والإيمان بالدولة وحدها . فإذا أصبحت تركيا بلداً علمانياً — ومعظم المسلمين فى بلاد القوقاز الملحقين بالاتحاد السوفييتى — هم من الأتراك ، كان من اليسير على الأجيال الناشئة فى هذه البلاد أن تخضع للدين الجديد لا بحكم الجوار ، ولا بحكم صلة القرابة فقط ، وإنما : لأن تركيا كانت مركز الخلافة وعلى رأس الإمبراطورية الإسلامية قد أعلنت الآن عزل الإسلام عن شئون الدولة ، وأخذت لنفسها طريقاً جديداً فى الحياة ، هو طريق ممهد على الأقل للعلمانية الماركسية . وإذن لابد أن يكون الإسلام عامل تخلف !! . هكذا المنطق السياسى .

ثم للاتحاد السوفييتى مع ذلك مصلحة خارجية كذلك فى كون تركيا بلداً علمانياً ، وهى إمكان التأثير بهذا النموذج على بلاد أخرى إسلامية مجاورة له من آسيا : كإيران ، وأفغانستان ، وباكستان ، فتضعف هذه البلاد من علاقتها بالإسلام . وبذلك تصبح مجالا حيوياً للاقتصاد والأمن السوفييتى . والاحتلال الروسى القيصرى لإيران فى فترة من الزمن . وحمله على إنشاء : « البهائية » أو « البابية » فيها تخريباً للقيم الإسلامية .. يعلن عن مدى التطلع الروسى إلى هذه البلاد الإسلامية . . منذ وقت طويل وقبل الثورة البلشفية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

والغرب له مصالح اقتصادية عديدة واستثمارات مالية كبيرة فى البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، ومن شأن قبول هذه البلاد للعلمانية أن يسهل للغرب طريق الحركة فى سبيل الاستغلال الاقتصادى ، سواء أكان من مصادر الثروة الطبيعية أم من دائرة الطاقة البشرية . وكتاب — الإسلام قوة الغد — لبول أشميدت سنة ١٩٣٦ (١) يوضح فى غير لبس إمكانيات البلاد الإسلامية من الثروة الأرضية والمعدنية ، وتكاملها ، وطاقة المسلمين فى الخصوبة الجنسية ويسر الارتباط بينهم على الإيمان بالله . وهو كتاب ينذر أوروبا بالفناء ، إن مكن الغرب المسلمين من التجمع .. ومن استخدام هذه القوى الثلاث . ونداء هذا الكتاب الموجه إلى الأوروبيين بالإنذار يعبر عن عمق الرغبة الصليبية فى الحيلولة دون تجمع المسلمين على الإسلام .

وإن دفعت البلاد الإسلامية اليوم لسبب أو لآخر .. إلى قيود الاشتراكية ليس بمفهومها فى الغرب ، ولكن بمفهوم البلشفية — فإن هذه البلاد ستكون أكثر تمهيداً للاستغلال الاقتصادى .. وأكثر طواعية للتبعية الأجنبية . وثورة كالثورة الثقافية فى الصين الشعبية كفيلة بمحو الإسلام فى زمن قصير جداً .

---

(١) تقوم مجلة « الفكر الإسلامى » بلبنان بنشره على حلقات ، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور محمد شامة الأستاذ بجامعة الأزهر ، وقامت « مكتبة وهبة » بنشره .

وبنجلاديش مثل حى الآن لإبعاد الإسلام عن ديار المسلمين ،سواء بنشاط الأحزاب اليسارية ، أو بالتحالف مع الاتحادالسوفييتى وتولى الحزب الشيوعى فيه الولاية التوجيهية فى هذه الجمهورية المنشقة حديثاً .

ومع كون تركيابلداً علمانياً يفصل بين الإسلام والدولة فإنها بشأنحرية الأفراد فيها فى ممارسة العبادة الإسلامية ، لا تقلعن أى دولة إسلاميةأخرى لا تعلن رسمياً الفصل بين الدين والدولة ، لأن ما أعلنته تركيا فى الأمس القريب من الفصل بين الدين والدولة ، مارسه الاستعمار الغربى فى الأمس البعيد عملياً فى البلاد الإسلامية التى استعمرها ، ولكن فى تدرج وفى إحكام، وفى غيبة من الوعى الإسلامى . ولم يفلت أى بلد إسلامى ــ أو أكثريته إسلامية ــ فى آسيا وإفريقيا من الاستعمار الغربى ، ومن ممارسته العلمانية وإضعاف الإسلام فيها ، فالإسلام فى غالبية هذه البلاد أُبْعِد :

ــ **فى سياسة الحكم** : فنظام الحكم اليوم فى أى مجتمع إسلامى فى آسيا أو أفريقيا فى سيره : إما علمانى غربى أى رأسمالى ، وإما علمانى شرقى أى بلشفى ماركسى .

ــ **وفى سياسة التوجيه والتعليم** : إذ يشار إلى الإسلام فى بعض مناهج المرحلتين الأولى والثانية ، يغفلفى التعليم العالى والجامعات ، حتى فى البلاد التى تعلن رسمياً أنها تمارس الإسلام فى حياة المواطنين فيها .

ــ **وفى سياسة التشريع والقضاء** : فما لم يلغه الاستعمار من مبادىء الإسلام أو مظاهره ، ألغاه الحكم الوطنى بعد الاستقلال، كالأوقاف ، والميراث.

ــ **وفى سياسة المال والاقتصاد** لا يعنى فيها : إن كانت ملائمة أو غير ملائمة للمبادىء الإسلامية والاتجاه الإسلامى فى حياة المسلم .

ــ ولم يبق من الإسلام فى المجال العملى للحياة الإسلامية إلا الأحوال الشخصية. أى أحوال الزواج ، والطلاق ، والنفقة ، والحضانة ، والعدة ... إلى آخر موضوعاتها ، فهل النداء بالعلمانية وصيحة من يسمون أنفسهم بالعلمانيين

فى البلاد الإسلامية هى لإلغاء هذه الأحوال الشخصية ، أى لإلغاء المظهر الباقى من شخصية الإسلام ؟

لم يبق من الإسلام فى الأحوال الشخصية كفاصل بين المسلمين وغيرهم إلا أن المرأة المسلمة لا تتزوج غير مسلم . إذ الطلاق — الذى هو خصيصة الإسلام — سعى إليه الغربيون الرأسماليون والشرقيون الشيوعيون ، واقتربوا فيه من الإسلام على درجات مختلفة . فهل تنحصر العلمانية التى ينادى بها اليوم فى المجتمعات الإسلامية فى جواز : زواج المسلمة بغير المسلم ؟

هل فى جواز زواج المسلمة بغير المسلم : مصلحة الدولة ، تحقيقاً للعلمانية؟ أم هو الاندفاع فى التقليد ؟

***

ويلاحظ أخيراً : أن البلد الذى أعلن الإسلام دستوراً له ، وقام كدولة على أساس منه — وهو باكستان — بقى له من مظاهر التخلف على عهد الاستعمار بعد استقلاله ، ما يفسر الآن بأن سببه الإسلام ، والتمسك به . ويثير هذه القضية كثير من المستشرقين ، مثل : ويلفريد سميث ، فى كتابه : « الإسلام فى التاريخ » . فيوازن بين تركيا العلمانية وباكستان الإسلامية ، ويخرج من الموازنة بذكر : أن الإسلام بإبعاده عن الدولة كان السبب فى تقدم تركيا ، وباحتضانه وبتأسيس الدولة عليه كان سبباً فى تخلف باكستان ، مع أن كلا من الدولتين آسيوى ، ولا يتكلم العربية كلغة أولى .

ولكن باكستان بقيت فى صلتها بالإسلام — بعد الاستقلال — على النحو الذى كانت عليه فى عهد الاستعمار . أى أنها لم تشرع دستوراً إسلامياً يعتمد فى مبادئه على القرآن والسنة الصحيحة — كما كان مرتقباً — تأخذ به فى جميع نواحى المجتمع الباكستانى ، كما لم تقم بنشاط غير عادى فى التوعية بالإسلام فى المدارس والأماكن العامة ، عدا ذلك النشاط فى المساجد وهو نشاط تقليدى . وذلك بفعل العسكريين الذين تولوا مقاليد الأمور فيها واحداً

بعد الآخر . وظل الوضع فى سيره كما كان ، وكما هو فى أى بلد إسلامى آخر ، نالت من دينه علمانية الغرب فى عهد الاستعمار . ولهذا لم يوضع الإسلام موضع التجربة كدستور وكقانون ، وكمنهج ، فى التربية والسلوك فى حياة المجتمع الإسلامى الباكستانى . واستمرار الوضع السابق على عهد الاستعمار هو الذى هيأ للحركات اليسارية والانفصالية فى شرق باكستان وغربها اليوم : أن تقوى وتزداد فاعليتها . وقد أثمرت هذه الحركات ثمرتها. فانفصل شرق باكستان بمعاونة الهند الهندوسية وروسيا البلشفية الشيوعية . وأعان العلمانية . ونفس المصير سيصيب القسم الباقى من باكستان الغربية ولكن بتأثير الصين الشيوعية .

والمصادر الأجنبية التى قدمت المساعدات الاقتصادية والفنية والعلمية لتركيا العلمانية ، ليس فى مصلحتها أن تقدم مثل هذه المساعدات لباكستان المسلمة ، حتى لا يكون وجودها وازدهارها عامل تحريض للدول الإسلامية الأخرى فى آسيا وأفريقيا : على تمسكها بالإسلام والسعى إلى الأخذ به فى مجالات الحياة المختلفة » إذ من المؤكد أن قوة الإيمان بالإسلام فى البلاد الإسلامية تشكل وحدها العقبة الأولى فى طريق تبعية هذه البلاد للأيديولوجيات الأجنبية الغازية . وبالتالى : تقوى شعور هذه البلاد باستقلالها أمام الإغراء أو التهديد الخارجى كما يشكل الإيمان نفس العقبة فى طريق التوسع الإسرائيلى فى البلاد العربية . ومحاولة إعلان العلمانية الغربية .. أو تطبيق الاشتراكية البلشفية فى الوطن العربى هى محاولة تمهد لإسرائيل الاطمئنان على المستقبل. وعلى التوسع الاقتصادى والعلمى فى هذه البلاد . كما تمهد للكتل الاستعمارية المنافسة على خيرات الشرق الأوسط ومركزه وأن تصل إلى نفوذ فيها يخنق الأنفاس .

***

والآن ، لا يقال : إن الإسلام يحد من حرية الإنسان ، ويفرض الوصاية على الإنسان ، أو يكره الإنسان . . إن رسالته هى رسالة الإنسان فى مستواها الفاضل .

والآن أيضاً ، ليس فى الإسلام « جمود » طالما كان الاجتهاد مبدأ أساسياً فيه ، مبدأ ملاحقة التطور والوقائع المتجددة فى إدراجها تحت مبدأ من المبادىء العامة فيه .

والآن كذلك ، ليس فى عقائد الإسلام تعقيد ، لأنه يفصل بين مستوى الله ، ومستوى الإنسان فصلا تاماً : « **ليس كمثله شيء** »(١) . « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** »(٢) .. فلا يختلط الإنسان — فى خطئه وصوابه — بالله فى قدسيته وحكمته .

والآن كذلك : ليس فى الإسلام أى باعث يبعث على مايسمى : «بالتخلف» طالما لا يرى شراً فى الدنيا ، وفى الحياة المادية ، من : أكل ، وشرب ، وزواج ، ونسل ، وزينة ، وإنما يرى الشر فقط فى « الإسراف » وفى الغلو فى الاستمتاع بما فى الحياة المادية . وطالما أيضاً يرى : أن الإنسان يحمل وزر نفسه وخطيئته وحدها : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى** ..»(٣). فهو ينظر إلى الإنسان على أنه « وحدة » مستقلة تنطلق فى غير قيود من أخطاء سبقت وفى مسئولية شخصية فردية .

. . لا وصاية بل استقلال

ولا جمود بل حركة . .

ولا تخلف بل تقدم بالسعى والعمل فى الحياة الدنيا .

. . إنسانية خالصة .

. . ومسئولية فردية واضحة .

. . عبادة الله وحده ، ومساواة بين الإنسان والإنسان .

. . وبشهادة : أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، يتصل الإنسان بربه من غير وسيط

. ٥ وبالإيمان بالله يتحرر الإنسان من كل إلزام خارجى عنه .

---

(١) الشورى : ١١ (٢) الأنعام : ١٠٣

(٣) فاطر : ١٨

. . : تلك أسس النظرة الإسلامية إلى الإنسان .

ولو كان الإسلام فى أوروبا ما نشأت العلمانية فى الفكر الأوروبى ، ولما وصل تفكير بعض المفكرين فى أوروبا إلى التطرف فى المادية ، والجنوح إلى شحن النفوس بالأحقاد ، ودفعها إلى الانقلاب الدموى ، لحل بعض المشاكل الاجتماعية .

وإن طلب تطبيق العلمانية فى مجتمع إسلامى من حاكم .. فذلك لعدم أهليته للحكم ، وللهرب من المسئولية التى يلقيها الإسلام على الحاكم كحاكم ، فى طلب الاستقامة فى السلوك وأداء الحكم والعدل ، والشورى المتبادلة والرعاية ، وليس التسلط .

. . وإن طلب من مفكر ، فذلك هو لقصور فى معرفة الإسلام ، وخداع نفسه وغيره بعرض قضايا ، يدرك أطرافها فقط ، جوهرها وغايتها .

. . وإن طلب من سياسى ، فهو للتلاعب بالفكر غير الناضج ، والتمويه فى حلبة المنافسة السياسية .

. . وإن طلب من فتى ، وفتاة فهو للتحلل من التزام الإيمان : فى التوجيه والسلوك والانطلاق فى شهوة البطن ، والفرج ، والملبس !

***

أتراد العلمانية فى شرقنا على نمط الفصل بين سلطة دينية وأخرى مدنية ؟ ... ما هدف الفصل إذن ؟ .

أهو خلق لدولة داخل دولة ، وسلطة بجانب سلطة ؟ . . أعندئذ تتم وحدة الأمة والمجتمع ؟ أم يزداد مصدر الاحتكاك بحكم المحافظة على البقاء ؟

أتراد العلمانية فى شرقنا على نمط إلغاء الدين وإشاعة الإلحاد لتنفرد الدولة بسلطتها ؟ ما هو البديل عن الدين فى الدولة الآن ؟ .. ما هو الدين الجديد ؟ وقد رأيناه فى المرحلة العلمانية الثانية .. السياسية . كما رأينا المعبود : « جماعة العمل » أو « الدولة » .. وانتهى أخيراً « بالحزب » .

(ا) أهو القومية العربية فى شرقنا ؟وما مضمونها ؟ . . أهو تاريخ العرب وقدكوّنه الإسلام ؟ .. أم هو اللغة الفصحى وليست موجودة إلا فى القرآن ؟ . . أم هو اللهجة العامية ؟ وأية لهجة من اللهجات القائمة فى المحيط العربى هى التى تسود ؟ ..

(ب) أهو الماركسية أو البلشفية — كما تسمى رسمياًفى السياسة الدولية؟.. وأى ضرب من ضربيها . أهو الضرب الأرثوذكسى منها الذى لا يهادن الرأسمالية ؟ أم ذلك النوع الآخر الذى يوصف من أصحاب الضرب الأول بأنه « ردة » .. وهو الذى يضع التعايش السلمى كأسلوب للعلاقات الدولية، بدلا من عدم المهادنة ؟ . .

وهل على لهجة عامية واحدة يمكن أن تجتمع الأمة العربية ؟ وهل فى نوع من البلشفية يؤمل فى أن تتحد ؟ وأين عندئذ استقلالها ووجودها ؟ هل يذوب فى وجود الاتحاد السوفييتى ، أم فى وجود الصين الشيوعية ؟

***

إن النصيحة هى دراسة الإسلام أولا دراسة واعية ، وعلماء المسلمين قبل عامتهم عليهم أن : يعيدوا دراسته فى كتاب الله ؛ ويستوحوا الرأى منه ، دون أن يفرضوه عليه من خارجه .

***